الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

ظلال قابيل

رواية



لطيفة الحاج

ظلال قابيل

لطيفة الحاج

ظلال قابيل

رواية



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر 2024 م - 1446 هـ

ردمك 978-614-01-3740-0

جميع الحقوق محفوظة :

إصدار

توزيع
الدار العربية للعلوم للناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
التوزيع في المملكة العربية السعودية
شركة الدار العربية للعلوم للناشرون للنشر
السجل التجاري 1010921463

الدار العربية للعلوم ناشرون م م ح

مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر

المنطقة الحرة، الشارقة

الإمارات العربية المتحدة

جوال: 585597200 971+ – داخلي: 0585597200

هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1–961+)

البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http: //www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونيةأو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أُخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون

الإهداء

إلى جدِّنا هابيل، أول قتيل في تاريخ البشرية.

مات هابيل بلا أطفال، ينحدر البشر من القاتل قابيل.

- *أركادي* دافيدوفيتش

شاهين

القتل مثل الموهبة، نجده أحيانًا في العائلات.

- جورج هنري لويس

اقتله، اقتله، اقتله، عاد الصوت يتردَّد في رأسي من جديد. ظننته غادرني بلا رجعة لكن.. ها هو ذا يعود. كان جدِّي قابيل أول قاتل في التاريخ. صحيح أنني لم أرَه، لكن أظنني حملت صفاته. قاتل قديم جدًّا وهو لِقِدَمه وبدائيته لم يعرف حتى كيف يدفن جثَّة أخيه هابيل. وجاء غراب من حيث لا يدري، حفر التراب ووارى جثة غراب آخر، فتعلَّم منذ ذلك الحين كيف يكمل العمل الذي يبدؤه. اقتلها، اقتلها، إنها لا تُطاق. انظر لحالها المزري، كثيرة الشكوى، لا تسكت، صوتها عالٍ. إنها مزعجة، إنها حثالة. حثالة تعيسة، توزِّع تعاستها على كل مَن حولها. صار قاتلًا لأنه غار من أخيه حين تُقبِّل قربانه، أو أنه صار قاتلًا لأنه غار على أخته من أخيه الذي كان سيتزوَّج بها، وينجب ذرِّية آدم. كان قد تزوَّج كل منهما بأخته التي لم تنجَب من البطن نفسها. فهابيل تزوَّج توأم قابيل وقابيل تزوَّج توأم هابيل. ثم أنجبا الأبناء والبنات ولاحقًا حدث الخلاف وقتل قابيلُ هابيلَ. ما يهمُّ من القصة كلها أن أحدهما قتل الآخر.

صار القتل منذ تلك الجريمة معروفًا ومألوفًا ثم شائعًا، وفي كثير من الأحيان مشروعًا، تشرِّعه القوانين ولا تعاقب عليه، بل تجعله جزاءً لأعمال سيِّئة يقترفها الناس حقدًا، أنانية وحتى جهلًا. اقتله، اقتله، يا ابن حسنوه روزنة. كان العقرب مخيفًا بالنسبة لطفل لم يبلغ الخامسة بعد. مخيفًا حتى لشخص بالغ. خافت على نفسها من العقرب وأجبرتني على قتله. لا أعرف كيف فعلت، لكنه مات. بصفقة من نعلها الكبير، لا أعرف كيف هويت عليه، وتمكَّنت من التصويب بنجاح. ربما خفت منها، كانت مرعبة أكثر من العقرب نفسه. الخائف

من الموت يمكن أن يصير مخيفًا. يقتل أو يحرِّض على القتل. اقتله يا قاتل أُمك، اقتله.

كلّنا نولد أبرياء حتى تثبت إدانتنا. لا أذكر أين قرأت أو سمعت هذه العبارة. أو أنني أنا الذي ألَّفتها. المهم: كلنا نولد أبرياء، فالطفل وهو حديث الولادة ليس مؤهَّلًا للقتل. مع هذا أنا فعلت. والشمطاء بقيت تذكِّرني وتحكي لي مرارًا عن أمي التي تسبَّبت في موتها، وتوأمي التي ماتت لأنني كنت أنانيًّا وسلبتها حقها في العيش. منذ البداية، منذ التقاء نطفة أبي ببويضة أمي دمغت بصفتي قاتلًا. كانت أمي تقول إنني قتلت فرحتها حين حملت بي، كانت تحلم بشهر عسل تليه شهور عسل أخرى طويلة. لكنها حملت بي في شهر العسل الذي لم يكن عسلًا، وهذا ليس شأني. ثم تركت كل أنواع الوحام وتوحَّمت على أبي الذي كرهته، وكرهت رائحته ووجوده وحتى اسمه. كان مجرّد الحديث عنه يصيبها بالغثيان. فتستفرغ سريعًا عصارة معدتها الخالية.

أصبحت أمي مخلوقًا أشبه بالفزَّاعة: نحيلة بعظام بارزة. كانت لا تتناول من الطعام سوى نوعٍ واحدٍ من البسكويت المملح. ذلك النوع فقط ولا شيء آخر. ولم تكن تستسيغ طعم الماء. كانت تزعم أن له طعمًا. ترشف رشفة من القنينة وتتركها، ثم تفتح أخرى وتتركها. نوع من المياه المعدنية يسبِّب لها الاحتقان، نوع ثانٍ له طعم مياه الصنبور، نوع آخر له رائحة ماء البحر. وهكذا في كل شهور الحمل. لا أعرف علامَ كنت أتغذَّى، وأنا في بطنها، لم يكن الغذاء كافيًا لي وحدي، فكيف كنت سأسمح لأختي بمشاركتي فيه. يقولون: إن الجنين يتغذَّى على مواد ينتجها جسد الأم حتى لو لم تتناول الطعام الكافي. دليل على ذلك الأمهات اللاتي ينجبن، وهنَّ يعانين من سوء التغذية، ويعشن في بلاد تغزوها المجاعة.

كل هذا حكته لي عمَّتي الشمطاء، أخذني أبي ووضعني في رعايتها بعد أن تزوَّج كل أبنائها وبناتها وبقيتْ وحيدة، بكلى معطوبة ومزاج سيئ كل الوقت. ثم بعد موته في حادث سخيف بعد خمسة أعوام من موت أمي. أرسلتني عمَّتي للعيش مع ابنتها عالية التي تزوَّجت منذ سنوات، ولم تنجب عمَّتي عالية، كانت تجلسني وأنا ابن تسعة أعوام أمامها وتحكي لي قصصًا لا

تشبه قصص الأطفال، تمامًا كما كانت أمها الشمطاء تفعل، وهي مقتنعة بكوني سأكبر، وأصير قاتلًا حقيقيًّا، حرصتْ على ذلك حين كانت تؤهِّلني للأمر، وتجعلني أقتل الحشرات والزواحف التي تخيفها. ولا أعرف من أين كانت تأتي بطاقة الشر التي تتلبَّسها، تضرب الخادمة وترمي صينية الطعام وترشُّ الماء في وجهها. وأنا كانت تقرصني حين أتأخَّر في الاستجابة لطلباتها. أو تضربني بالمفتاح المربوط في طرف شيلتها. ظننت وضعي سيكون أفضل بانتقالي إلى منزل عمَّتي عالية. لم يكن هنالك تحريض صريح على القتل، ولا إجبار على قتل الحشرات المخيفة. لكن ذكرياتها التي كانت تسترجعها وتصبُّها صبًّا في أذني، كانت كفيلة بأن تعزِّز لديَّ الشعور بالحنق والغضب والاستياء من العالم. حكت عن أمي وعن أبي وعنها هي، عن زواجها بمانع وحرمانها من نعمة الإنجاب.

كل القصص تلك كانت تنساب من مسمعي إلى روحي وتصنع مني طفلًا كبر قبل موعده بأعوام. عرفت أشياء كثيرة عن حياة الكبار لم يكن عقلي يستوعبها، لأنها لم تكن تَشْرَح لي. كانت تحكي عن الخيانة والتحرُّش والعلاقات المحرَّمة التي حدثت بين رجال من أهلها مع نساء تعرفهنَّ وحتى مع الخادمات. حكت لي حتى عن محاولات الحمل الفاشلة والمرات التي زارت فيها عيادات الإخصاب، لتتمكَّن من الحمل لكنها في كل مرة كانت تخفق. وكأنها تتحدَّث مع رجل راشد اختبر كل شيء في الحياة.

ظاهريًّا كانت عمَّتي عالية امرأة قوية وحكيمة، محاطة بنساء تقول إنهنَّ رفيقاتها، لكنها لم تكن قادرة على الانكشاف أمامهنَّ، والحديث عن القصص التي تحكيها لي حتى لا تتزعزع صورتها المثالية أمامهنَّ. مع أنها في الأصل مكشوفة وواضحة والجميع يتكلَّم من خلفها عنها، وعن الصورة المثالية لعائلتها التي تحرص على أن تظهر عليها أمام الناس وهي في الحقيقة صورة مشوَّهة وشبيهة بكل العائلات غير الكاملة، وربما هي أسوأ منها.

أخبرتني عمَّتي عالية عن رحم أمي الذي لفظني قبل أن أتمَّ شهري السابع. خرجت قطعة لحم صغيرة لا يتجاوز وزنها الكيلو والنصف. لم يتمكَّنوا من إنقاذ أمي. نزفت كثيرًا، أو أن ما فقدته من وزنها جعلها غير قادرة على

العيش، فكانت أضعف من الأمهات اللاتي يحملن ويلدن في بلدان تعاني شعوبها من المجاعة. سمعت هذه القصة عندما كنت في الثانية عشرة. أعني بهذه التفاصيل، ربما لم تشأ أن تقسو عليَّ وتحكي عن موت أمي قبلها، لأنها وجدتني صغيرًا جدًّا. وكأن سن الثانية عشرة سن كبيرة بما يكفي لتصدمني بقصة كتلك. كنت أجد التفاصيل التي تحكي فيها غير مهمَّة، وبقيت تساؤلات أخرى في رأسي تحتاج توضيحًا، لكنني آثرت عدم طرح أسئلتي عليها، مع أنها كانت ستسرّ لو سألت، وستحكي وتفصِّل حكاياتها بلا توقُّف.

أمي هي ضحيَّتي الثانية. وشقيقتي التوأم هي الأولى. كانت أمي حاملًا بولد وبنت وكنت أنا الناجي منهما. بنية أمي الضعيفة وعدم تهيّئها نفسيًّا للحمل أدَّى إلى مضاعفات أثَّرت على رحمها، ولأنني كنت الجنين الأقوى، كنت أستأثر بالغذاء لنفسي، لذلك نجوت، وماتت توأمي. وتخيّلوا لو أنها عاشت واضطررت للعيش مع شقيقة توأم والاعتناء بها كوني الأخ الذكر. وما حدث لاحقًا من موت أبي وما تبعه من أحداث عشتها في بيت الشمطاء وبيت ابنتها وزوجها بعدها. وعلى الرغم من ارتياحي لفكرة أنها لم تولد، لكنني أتذكَّرها، وأتخيَّلها أحيانًا، وأحيانًا كثيرة أحلم بها.

أحلم بأننا جنينان في رحم أُمِّنا. نلعب كل في مشيمته ونركل بطن أمي وما فيه من أعضاء. نقهقه ونلهو محتميَيْن وآمنَيْن من كل الشرور التي تتربَّص بنا وبكل المخلوقات في العالم، ولكنني كنت الأسرع إلى الغذاء. ماتت توأمي وهي جنين عمره عشرة أسابيع، وأظنُّ أمي سعدت حين نزفت وعرفت بأنها فقدت حملها. لكن الصدمة كانت حين أخبروها بأن هنالك جنينًا آخر، وبأن عليها أن تتحمَّل تعبها وأوجاعها في انتظار أن أخرج من أحشائها سليمًا.

ربما

نودُّ جميعنا أن نصدِّق أنه يمكن للناس أن يتوقَّف بعضُهم عن قتل بعضِهم الآخر.

- رالف فاينز

يُفتح باب الغرفة وتدخل أمي، تمشي بانكسار من جديد، كانت حتى شهر من اليوم تدخل وتقبِّلني على رأسي، لم تعد تفعل. تمسك بمصحفها وتجلس على الكرسي القصيّ مستندة إلى الجدار بعد أن كانت تجلس بالقرب من سريري. ما الذي حدث؟ ربما فقدت الأمل في شفائي ومجيئها كل يوم ليس إلا مجرّد واجب عليها أن تؤدِّيه. لكنني أسمعها أحيانًا تتحدَّث في الهاتف ويختنق صوتها، تقول: إنها لا تزال صغيرة، لم تتزوَّج بعد، كنت أرغب بأن أزوِّجها وأفرح بها، ثم أسمعها تسحب ورقة محارم وتنظِّف أنفها الذي يسيل سريعًا عندما تبكي كما يحدث معي. هي ما زالت تحبُّني، لكنني أستشعر حنقًا وغضبًا عليَّ في خطواتها وكلماتها وحتى نحيبها. لماذا هي غاضبة مني؟ لا أعلم. أشعر بكل الأشياء التي تحدث حولي، وتزورني ذكريات قديمة لأحداث عشتها. لكنني عاجزة عن تذكُّر السبب الذي أرقدني على هذا السرير، كما أنني لا أذكر كم مرَّ من الوقت على بقائي ممدَّدة هنا، إنها نوبة جديدة من نوبات ترنُّح الذاكرة عندي. سأستعيد ذكرياتي كلها لو أن هذه الأجهزة المزعجة تتوقَّف عن الطنين والصفير قرب رأسي وتثير فيَّ جنوني. أشعر بكل الأشياء وكل الأشخاص الذين يدخلون ويخرجون من هذه الغرفة، لكن حركتي مشلولة، ولساني معقود، ولا قدرة لديَّ على تحريك أطرافي أو على الكلام.

اليوم موعد زيارة حفصة، أستطيع تخيُّل ابتسامتها، تمسك بيدي طول فترة جلوسها، تتمتم بآيات. أتمنَّى لو أفتح عينيَّ وأراها، تأتي مرة في الأسبوع،

كل أربعاء، في اليوم التالي تعود إلى مدينتها. التقينا في الجامعة، أنا كنت طالبة، وهي كانت تعمل مساعدةَ باحث، منذ ذلك الحين ونحن صديقتان، تضغط على يدي كأنها تنتظر أن أستجيب لضغطتها. أودُّ لو أستطيع، لكنني أشعر بضعف شديد، يمنعني حتى من أن أفتح عينيَّ وأراها. عندما تأتي حفصة تخرج أمي، لا أعتقد أنها تعود إلى المنزل، لأنها ترجع بعد نصف ساعة، تسألها حفصة عن أحوالها، تردُّ: الحمد لله، أتخيَّلها تقلب يديها بلا حيلة. تقول لها حفصة وهي تضغط على يدي: ادعي لها خالتي، الله يستجيب لدعائك أنت قبلنا جميعًا. أسمعها تسحب ورقة المحارم وتنظِّف أنفها.

فجأة تنقضُّ على عقلي مشاهد مختلفة للحظات التي وقع فيها الحادث. أنا هنا بسبب الحادث إذن، كأنني في حلم طويل يعيد نفسه كل مرة بصورة مختلفة. يعلو صوت فرامل السيارة، أكون جالسة على المقعد الخلفي يمين السائق، وأقود السيارة من مكاني. تأتي سيارة مسرعة ذات دفع رباعي يقودها سائق بدين، يصدم السيارة جهة السائق وتنقلب ثلاث مرات حتى تستقرّ مقلوبة. أبقى أنا محتجزة وأشعر بألم فظيع في رأسي. أحيانًا أسمع صوت الفرامل ثم أراني ممدَّدة على العشب بعد الرصيف ولا أشعر بقدميّ ودماء كثيفة تغطِّيني. وحينًا آخر أراني لا أشكو إلا من خدوش بسيطة، أخرج من السيارة وقد تمزَّقت عباءتي وغطاء رأسي.

أسير نحو السيارة الأخرى وأجد أن سائقها قد فارق الحياة. أحيانًا تتلاحق الصور الثلاث في الوقت نفسه. أحاول أن أتذكَّر ما حدث بالفعل، لكنني أفشل، أتمنَّى لو أن أحدهم يتحدَّث عن الحادث أمامي، لكنهم لا يفعلون، يتحاشون الحديث عن الموضوع، أريد أن أعرف. من حقِّي أن أعرف. ما الذي حلَّ بسيارتي يا ترى؟ هل انعدمت؟ وتمَّ شطبُها من سجلات السيارات في مركز المرور؟ أم أنها لا تزال قابلة للاستخدام بعد إجراء تصليحات تكلِّف بضعة آلاف؟ هل يعقل أن أكون غفوت؟ واصطدمت بشيء ما؟ أو كنت سببًا لأن يفارق أحدهم الحياة؟

الحمد لله أنني كنت أقود السيارة بنفسي، ولم يكن هنالك سائق يقود بي إلى الجامعة ترافقه خادمة تصرُّ أمي على أن تكون في السيارة كما كانت

تفعل حين لا تتمكّن من المجيء مع السائق لأخذي من المدرسة. لا بدَّ أنها الآن تلوم نفسها لأنها وافقت على أن أحصل على رخصة القيادة. كان ذلك حلمي وحقَّقته حتى وإن كاد ذلك الحلم يقتلني. أليست بعض الأحلام قاتلة؟ وهنا يكمن سرُّ روعتها. كنت في الطريق إلى الجامعة، أمر آخر لا بدَّ أن أمي تلوم نفسها عليه، حين وافقت على أن أدرس في جامعة في العاصمة التي تبعد مئتيَّ كيلومترًا عن منزلنا.

تمضي الساعات وأمي جالسة، أسمع صوت صفحات المصحف وهي تقلِّبها، خطواتها وهي تدخل إلى الحمام تتوضَّأ ثم تفرش سجادتها وتكبِّر. أسمع صوتها وهي تنفث إفرازات أنفها، من المؤكَّد أنها بكت كثيرًا وهي تدعو. لماذا يحدث هذا لي ولها، لا شكَّ أنها تسأل نفسها وربما تسأل الله وتدعوه بأن يمنحها الصبر. أمي الصبية المدلَّلة التي تزوَّجت من التاجر الغني وترمَّلت صغيرة، ليأتي أبناؤه الكبار، ويسلبوا منها حقَّها في الميراث. ولأن أمي ابنة ناس وعاشت مكتفية من خير جدِّي اختارت أن تتنازل عن حقِّها ووكَّلت الله. تبدَّدت أموال والدي سريعًا وأفلس إخوتي، وحصلت أمي على حقِّها بانتقام الرب منهم.

تقول إنها سامحتهم إكرامًا لذكرى والدي، كرَّست حياتها من أجلي. ربَّتني وأظنها أحسنت التربية. لكن الحادث المشؤوم حدث، وانقلبت حياة أمي من جديد. تتصل حفصة بأمي، أسمع أمي تعزِّيها، أشعر بدقات قلبي تتسارع، مَن الذي مات؟ هل والدها؟ لا بدَّ أنه هو، والدها المريض منذ سنوات. كانت تحرص على العودة إلى مدينتها نهاية كلّ أسبوع لتزوره في المستشفى. تنتهي مكالمة أمي مع حفصة، لكنها لا تخبرني شيئًا. لماذا لا تتحدَّث إليَّ؟ في كل المسلسلات والأفلام يتحدَّث أصدقاء المريض وأهله معه حتى لو كان في غيبوبة طويلة. حفصة تعرف هذا الأمر ولهذا هي دائمًا تتحدَّث إليَّ حين تأتي لزيارتي وتلمسني، أمي لا تفعل، لا تقترب. إلا إذا شعرت بالخوف عليَّ حين يعلو طنين أحد الأجهزة. لا تلمسني إلا عندما تغيِّر لي ملابسي وترشُّ عليها عطري المفضَّل.

أرغب بشمِّ رائحتها وسماع صوتها قريبًا مني. هل تراها سئمت واهترأ؟ بالنسبة إليها الرابط المتين الذي كان يربط بيني وبينها؟ لطالما كنت أسأل نفسي هذا السؤال: لماذا تهترئ الأشياء كلما استهلكناها؟ ألأننا نحتاج دومًا للتجديد؟ ولولا اهتراء أشيائنا القديمة لما فكَّرنا في التخلُّص منها والحصول على بدائل جديدة تشبهها، أو تختلف عنها. الملابس التي نضعها على أجسادنا يوميًّا، والأحذية التي نطأ بها الأرض والشارع، الحقائب، الجوارب، الكتب، الدفاتر، مفارش الطاولات وأغطية الأسرَّة، كلها أشياء إن كرَّرنا استخدامها آلت إلى الاهتراء. علاقاتنا مع الآخرين، هي كذلك قابلة للاهتراء إن استهلكت في عتاب كثير، أو حب جامح، أو كذب دائم. لم أكذب عليك يا أمي. وليس من طبعنا أنا وأنت العتاب. لقد تعلَّمت منك ألَّا أعاتب وألَّا أبالغ أصلًا في الاهتمام. أحببنا كثيرًا نعم أنا وأنت.

أحببت أنت أبي وأحببتني وأنا أحببتك وحدك وما زلت. لكن هذا الحب، حبِّي لك لا يمكن أن يستهلكني أو يدفع أي رابط يربطني بك إلى الاهتراء. في الأصل كنت دومًا على الرغم من اهتراء بعض أشيائي وحتى علاقاتي، أصرُّ على الاحتفاظ بها والتشبُّث بأشياء لا يعود استخدامها ممكنًا. لكن التخلِّي عنها بالنسبة إليَّ، يعني التخلِّي عن ذكرياتي العزيزة، وكذلك هي العلاقات، أحتفظ بها احترامًا للعيش والملح والعِشرَة والقربى. ومهما حدث يكون التخلِّي عنها صعبًا. حتى أحلامي التي استهلكتها مرارًا، رأيتها في مناماتي كل ليلة وبقيت كل النهار أراها في يقظتي. وهي مثل الأشياء والعلاقات، قد تهترئ، عبرَ تمنِّيها بشدَّة والاستعجال بتحقيقها ومحاولة تحقيقها ولو بطرق غير سويّة.

أحلامي التي لم أخفها يومًا عنك يا أمي، كلها تعرفينها، كلها شاركتني إياها. بقيت أخبرك عنها لأنك الوحيدة القادرة على جعلها حقيقة. حلمي بقيادة سيارة ودراسة التخصُّص الذي أحبّ، حلمي بالسفر واقتناء الأشياء الكثيرة التي تأخَّرت في السماح لي بالحصول عليها لتعلِّميني كيف أقدِّر الأشياء وأستحقّها، وحلمي الذي نبت في قلبي مؤخرًا وما زلتُ أرويه ليكبر ويصبح حقيقة ألمسها. ولا أدري لما هذا الحلم تحديدًا أخافك، وكلما حدَّثتك بشأنه ارتبكت وغيَّرت الموضوع. الكتابة شيء جميل يا أمي، لا يوجد فيها ما يخيف.

هل خفتِ من أن أكتب عنك وعن حياتي فتنكشف حقائق مخفيَّة للناس؟ لكن مَن قال إن الكاتب عارٍ وعارٌ على أهله؟ الكاتب يا أمي قادر بذكائه على كشف ما يريد وإخفاء ما يرغب، وهو قادر على خلط الوقائع بالخيال، وتضليل القارئ إن شاء، ولا أسهل من إنكار الكاتب، فالكذب في الكتابة مباح. حاولت إقناعك بأنني سأكتب باسم مستعار وسأتجنَّب الظهور حتى لا يُعرف وجهي ولا تتبرَّأ مني ومنك القبيلة. لكنك ما زلت ترفضين، وما زلت أكتب وأكشف وأفضح ما أريد فضحه لنفسي.

في البدء كانت كتابتي لنفسي تبهجني، تثيرني وتكفيني؛ لكن لاحقًا انتابني شعور ملحّ بوجوب الانطلاق خارج حدود الدفاتر والحاسوب. على استحياء نشرت في مدوَّنة أنشأتها، ونشرت فيها أجزاء من رواية كتبتها، عن طفولة متخيَّلة عشتها في كنف والدي. ذلك الرجل الذي أحببته من حبِّك له. من صوره التي تملأ أدراجك وصناديق ذكرياتك، صنعت له شخصية الأب الذي أنجبني، ومات عني وأنا رضيعة. وتساءلت كثيرًا، لماذا قتلوا والدي؟ لماذا يقدم المرء على القتل؟ أليس قتل نفس واحدة يساوي قتل الناس جميعًا؟ كتبت قصتي مع والدي الذي نجا من الموت وعاد إلى البيت في تلك الليلة، وضمَّك وضمَّني، ونام في بيتنا. وكبرت في كنفه وعرفت حنانه واحتميت بظلِّه، وبقيت أنت مدلَّلة ومرتاحة وسعيدة. لم تكبري سريعًا ولم تحملي الهمَّ سريعًا. لم يحاربك إخوتي الكبار، لأنهم في الأصل لم يكونوا.

كنا أنا وأنت ووالدي وحدنا. ثم أنجبت أختًا صغيرة لي. حاولت الكتابة عن علاقتي بها وفشلت. حاولت أن أحبَّها وفشلت، كرهت الأخت التي صنعتها وأخرجت مشاعري السلبية التي لم أعرف يومًا بأني أملكها، وصارت أختي الصغرى عدوَّتي. خفت مني، وأنا أكتب عن الشرِّ الذي كان يكمن فيَّ، كانت غيرة وخوفًا من أن يأخذ أحد مكاني في قلبك. غرت منها عليك، وتنازلت عن والدي الذي بُعث في روايتي، وجعلته يحبّها أكثر مني، واكتفيت بحبّك أنت. حتى في الخيال يا أمي لم أفرِّط بك. بقيت روايتي حبيسة المدوَّنة المقفلة. لا أحد يقرؤها ولا أحد يعرف ما تحويه. كنت أهجرها لأشهر ثم أعود لأكتب عني وعنك وعن والدي وعن الأخت التي لم أحبّ.

شاهين

لا يمكن أن نحظى بالسلام بين الرجال الذين تُسعَدُ قلوبهم بقتل الكائنات الحيَّة.

- راشيل كارسون

إذن فقد ولدت مدانًا. كانت عالية التي أسمِّيها عمَّتي عالية بمقاييس الإنسانية إنسانة جيدة. هذا لو استثنينا طريقتها الخاطئة في تربية طفل لا يتجاوز عمره السابعة، والحديث معه عن شؤون الكبار، وتفتيح عقله على حقائق ستسلب منه براءته لامحالة -إن كان قد تبقَّى شيء من براءته -. لا يمكنني القول إنها كانت حنونًا أو شديدة الطيبة ولم تكن أيضًا قاسية أو شريرة. كانت عادية، تشبه كثيرًا من العمَّات والأمهات في العالم، ولا أقصد أمها الشمطاء المجنونة. هؤلاء العمَّات لسن حنونات لكنهنَّ يبدين الاهتمام الكافي والرعاية المطلوبة. كانت تحرص على طهو الطعام الذي تعرف إني أحبّه. وكنت آكل جيدًا وألبس ملابس نظيفة، كانت توجِّهني وتنتقد تصرُّفاتي التي تجدها خاطئة على الرغم من أنني لم أكن طفلًا شقيًّا. الأكل بيدي اليسرى مثلًا كان ممنوعًا، والجلوس أمام التلفاز لساعات طويلة كان غير مقبول. لكن الجلوس معها لساعات، وهي تصلح ملابسها، والاستماع لقصص الكبار كان أمرًا طبيعيًّا وصحيحًا من وجهة نظرها. زوجها مانع كان هادئًا، لم يتدخَّل يومًا في تربيتي. كان فقط يوصلني إلى المدرسة صباحًا، ويأخذني منها ظهرًا. يعطيني مصروفي اليومي، ويتركني أشاهد على التلفاز ما أرغب بمشاهدته عندما تكون هي غائبة. ولا أظنُّه آذى أحدًا يومًا ما. لم يكن يتجادل معها ولا يردُّ عليها لو حاولت مجادلته. لهذا كنت أجده في كثير من الأحيان رجلًا لا يطاق.

كان الجو العام في بيت عمَّتي يلزمني بأن أكون هادئًا قليل الكلام، كثير الاستماع. لكنّ شيئًا ما في البيت كان يصيبني بالحنق الدائم. عرفت بعد سنوات أنه صوتها الذي يذكِّرني بالشمطاء وهي تحكي، والقصص التي صدمت بها براءتي. كنت حانقًا لأنني لم أملك الشجاعة على الرحيل وترك عمَّتي وزوجها. اقتلهما اقتلهما يا ولد، يا قاتل أمك، هه هل تريد أن تقنعني بأنك خائف؟ أنت قاتل، اقتل. رغبة ملحَّة بالتخلُّص منهما كانت تنتابني لسنوات؛ لذا كان لزامًا عليَّ أن أقوم بتنفيذ جريمتي. كلما جلست معهما، حتى عندما كنت أختلي بنفسي في غرفتي كان صوتها يتردَّد في رأسي: اقتل يا ابن حسنوه روزنة، اقتل وأرح العالم من الشرور وأرح الناس من همومهم. فكَّرت كثيرًا في طريقة موت تليق بهما. لم أكن راغبًا بإيلامهما، عمَّتي لاقت من الألم كفايتها، كانت أوجاع الروماتيزم لا تفارقها منذ جئت للعيش معهما. وزوجها كان قد وصل لحدِّ الإدمان على المسكنات بعد انزلاقه قبل سنوات في الحمام، وتضرَّر عموده الفقري. كان كل منهما في منتصف الخمسين لكن التعب كان قد تملَّك منهما. وأنا أرحتهما وأرحت نفسي من سماع ذلك الصوت القبيح.

طحنت تلك الحبوب التي يتناولانها لتخفيف آلامهما، ووضعتها في الطعام تلك الليلة. بعد العشاء وهما يستعدَّان للنوم، أخذا جرعة أخرى. في الصباح حين لم تطرق عمَّتي الباب عرفت أنهما رحلا. رفعت السمَّاعة واتصلت بالإسعاف. كان سهلًا التظاهر بالخوف والحزن والتباكي على عائلتي الوحيدة. بقي المنزل لي، وسيارة الزوج، وبعض المال الذي كانا يدخرانه، ربما لأجلي.

في الصيف التالي التحقت بالمعهد الفني، وتخصَّصت في الأجهزة الطبية. لم تكن لديَّ الرغبة في الالتحاق بالجامعة، والالتزام بساعات دراسية طويلة. وسنوات دراسة أطول أقضيها في حضور الصفوف النظرية، والاستماع للمحاضرات، وتقديم البحوث والواجبات والامتحانات الكتابية. راقتني فكرة أن أفهم كيف يعمل جهاز يتعلَّق بحياة البشر. خطأ بسيط يمكن أن يودي بحياة إنسان، قراءة غير صحيحة للجهاز يمكن أن يتبعها تشخيص

خاطئ ووصفة خاطئة. كنت أقيس السكر في دم عمَّتي وزوجها، وأراقب جهاز غسيل الكلى الذي أرهق الشمطاء كلما ذهبنا لزيارتها أنا وعمَّتي عالية.

أدهشني أنني لم أفتقدهما ولو قليلًا، كنت أصحو أحيانًا على صوت طرقات على باب الغرفة في الوقت الذي اعتادت عمَّتي عالية أن توقظني فيه، وكنت أسمع صوتها يتردَّد في رأسي، وهي تحكي قصص العائلة، ومغامرات رجالها العاطفية الأحياء منهم والأموات. وكنت أحيانًا أسمع - في رأسي أيضًا - صوت المعلِّق على مباريات المصارعة الحرَّة يصل إلى الغرفة حين يجلس الزوج لمتابعتها لساعات متواصلة. عدا ذلك لم ينتبني الحنين ولم أشعر بأنني فقدت العائلة الوحيدة التي عرفت والأم والأب اللذين ربَّياني. بل إنني كنت أشعر بالخفَّة والتحرُّر والارتياح.

نمرُّ أحيانًا بمواقف سيِّئة مع أشخاص مختلفين: أهلِنا، زملائِنا، رؤساءِ عملنا، موظَّفي خدمة العملاء، وغيرهم. ويكون بعض تلك المواقف صعبًا؛ حيث نشعر بأنها الأسوأ على الإطلاق أو أنها مواقف لن ننساها ولن نسامح عليها ما حيينا. لكن الحياة رغم كل شيء تستمر، ويتغيَّر الناس، ونتغيَّر نحن. ولو أحصينا المواقف التي نتعرَّض لها باحتكاكنا مع الآخرين لوجدنا حياتنا كلها عبارة عن سلسلة طويلة من المواقف المختلفة مع العالم. وربما نعتقد أن قتل شخص ما هو أمر صعب، بل أشدّ الأمور صعوبة. لكنه مثل كل الأمور الصعبة، حين نختبره أكثر من مرة يصبح سهلًا وفيه شيء من المتعة. أنا أقتل ليس لمتعة الأمر أو سهولته أو سحره.

إنني أقتل لأنني ببساطة لا أطيق كثيرًا من الناس، أقتلهم لأنني لست راغبًا بهم في حياتي والحياة كلها. إنهم حشرات ضارّة، زواحف لزجة، تتواجد في أماكن ليست لها، تثير الغثيان والضيق للآخرين. هؤلاء الناس ليسوا سوى عالات على المجتمع، يثقلون عليه بكثرة شكواهم وتبرُّمهم، مما يمرُّون به من أحداث. ثم لو أن هؤلاء الناس، وأنتم منهم أيها القرّاء المتعجِّلون، أقول أنتم منهم لتتمهَّلوا قليلًا، وتفكَّروا فيما أكتب. لو ترك لكم الخيار في إنهاء حياة بعضكم البعض بدون عقاب أو جزاء، هل كنتم ستتوانون عن فعل ذلك؟

صدِّقوني، لن تدخروا جهدًا في إيذاء بعضكم. الإنسان محبّ للأذى راغب بالسيطرة والاستحواذ. الاستحواذ على كل شيء، حتى على حيوات الآخرين. ربما مأساتي الحقيقية تكمن في أنني لا أطيق تدخُّل الآخرين في شؤوني ولا محاولات فرض سيطرتهم على حياتي. عمَّتي عالية قبل موتها، بقيت تردِّد عليَّ بأنها تريد تزويجي، وبأن الوقت حان لأنشئ عائلة. كنت قد أنهيت الثانوية لتوِّي، في أي زمن تعيشين يا عمَّتي، قلت في نفسي. اقتلها، اقتلها، مجنونة عاقر، لم تنجب وتريد أن تزوِّجني لترى أبنائي وتربِّيهم. سأتكفَّل بعرسك، والعروس موجودة، البنات وايد. المهم أن تتزوَّج، ستحصل على عمل لاحقًا. أنا سأنفق عليكم، ألست أفعل منذ جئت للعيش هنا؟ أردت أن أصحِّح كلامها، وأقول إنها تنفق عليَّ من مال والدي، وليس من مالها.

أدخل المفتاح في الثقب وألفُّه لفَّتين وأضع يدي على المقبض الذي يحتاج مني جهدًا وأدفع الباب. رغم رائحة العفونة في الغرفة إلا أنني لا أشعر بالارتياح إلا بداخلها. أقطنها منذ وفاة عمَّتي وزوجها. تركت منزلها، واستأجرت الغرفة في مبنى قديم في وسط المدينة، حيث تنتشر مزارع النخيل والبيوت القديمة التي هجرها أهلها، وعرضوها للإيجار على الناس البسطاء. أغلب جيراني من العمال في المزارع والعائلات التي عجز أربابها في الحصول على مسكن في الأحياء الحديثة، التي ارتفعت أسعار عقاراتها بطريقة جنونية. أثثتها بسرير وكرسي وطاولة، أتخذ منها طاولة طعام وأصنع عليها شطائري التي آخذها معي إلى العمل. وأحيانًا تكون هذه الطاولة، طاولة القراءة عندما أحتاج للبحث في أكثر من كتاب في الوقت نفسه. وقلّما يحدث هذا، لأنني في الغالب أقرأ وأنا جالس على السرير. لديَّ مكتبة كبيرة هي عبارة عن أرفف ممتدَّة على ثلاثة حوائط من حوائط الغرفة. السرير يستند على جزء من الأرفف وكذلك الطاولة. الثلَّاجة وخزانة الملابس والموقد على الحائط الرابع الخالي من الكتب والذي تنفتح فيه النافذة والباب. ما زال المذياع الذي أخذته من زوج عمَّتي والذي طبع عليه شعار "بنك الدم" في حوزتي. يعمل جيدًا ويكفي أن ألقِّمه ببطاريتين، ليبقى صادحًا أشهرًا طويلة. أتركه يعمل حتى وأنا خارج الغرفة على أية محطة يشدُّني فيها حوار أو مسلسل إذاعي. لطالما كرهت التلفاز والصور المرئية باختلافها. وما زلت لا أستطيع فهم إعجاب

الناس بالأفلام والسينما والمسلسلات التلفزيونية. ولا أجرؤ حتمًا على الاعتراف بأنني من محبِّي المذياع، وكل ما يبثُّ عليه باستثناء الأغاني.

فتحت النافذة ورأيت العجوز مبروك الأبله، يقف على الرصيف ويمدُّ يده نحو السيارات والعمال العابرين. لم ينظر نحوه أحد، ولم تتوقَّف سيارة من أجله. السكان في هذه المنطقة والمتردِّدون عليها يعرفونه جيدًا. ربما قدَّموا له مساعدات في السابق، لكن تكرار وقوفه يوميًّا جعلهم غير مهتمِّين في تقديم المزيد له. ليس مبروك الأبله والعاطل عن العمل الوحيد في المنطقة والعالم كله. هنالك كثيرون يحتاجون المساعدة. والإنسان بطبعه يسأم، حتى مساعدة المحتاجين والفقراء. أنا نفسي لم أقدِّم له يومًا أية مساعدة سواء كانت مادية أو معنوية؛ أكتفي بمراقبته من النافذة.

ريما

الحياد جريمة. السكوت جريمة والكلام أمضى من القتل، لنكتبْ إذن، فالكتابة صلاة الكلمات بالكلمات.

- إلياس فركوح

أسمع صوتًا رجوليًّا، وأتخيَّل صوت أبي، كيف كان يا ترى؟ سألت أمي مرة عما إذا كانت تملك تسجيلًا صوتيًّا له. شغَّلنا فيديو حفلة العرس على أمل أن يظهر صوته فيه، كان يضحك ويبتسم ويتحدَّث، لكن الموسيقى الصادحة في القاعة غطَّت على صوته. أتمنَّى لو أنني عرفت صوته. وعرفت طريقة كلامه، هل تراه يتحدَّث بهدوء وبطء مثل أمي أم أنني أتكلَّم بسرعة مثله. حين أسألها تقول إن كلامه كان جميلًا، وله صوت مريح. أحاول تذكُّر صوت هادي سعيد. لا بدَّ أنه بعث لي برسائل كثيرة، وقلق من اختفائي. بسبب هادي قرَّرت أن أكتب رواية. التقيته في معرض الكتاب صدفة قبل ثلاث سنوات، كان يقيم حفل توقيع، وأهداني نسخة من كتابه. لم أكن قد قرأت له شيئًا، ولا أعرفه أصلًا. أخفيت الكتاب عن أمي لأنها لن تحبَّ ما كتبه لي في الإهداء: الفاتنة ريما، سررت بلقائك وأرجو أن تعجبك "ترّهات المغترب". كان هذا عنوان روايته.

كانت تلك المرة الأولى التي يصفني فيها أحد بالفاتنة. شعرت بالإطراء، وانكببت على الرواية، وأنهيتها في ليلة واحدة. تحكي عن شاب يسافر للدارسة في الخارج، ويفقد كل شيء في وطنه، فيؤثر البقاء في كندا حتى بعد أن ينهي دراسته. فيتضخَّم في داخله الشعور بالغربة، ويمرُّ بصدامات مع الثقافة الأجنبية التي يجد نفسه مجبرًا على الانصهار فيها. في نهاية الرواية وضع هادي بريده الإلكتروني مرحِّبًا بتواصل القرّاء. بعثت له رسالة أشكره فيها على المتعة التي رافقتني وأنا أقرأ الرواية. وذيَّلت الرسالة بالفاتنة ريما.

ردَّ على رسالتي بعد دقائق، وكأنه كان يترقَّبها. وجدت نفسي أتحدَّث معه في مواضيع مختلفة تخصُّ الأدب والقراءة. وأخبرني بأن "ترّهات المغترب" هي أقرب لسيرة روائية لأن الكثير من الأحداث حدثت له وهو مسافر للدراسة في كندا.

عرف أني يتيمة الأب، ولمس علاقتي القوية بأمي، وقال إنه يرغب بالتعرُّف إليها، لكنني أخبرته بأنني أنصحه بالتراجع عن رغبته، لأن أمي لن تكون مسرورة لو عرفت عن رسائلنا. هنالك أعوام كثيرة يكبرني بها هادي سعيد. ومئات الأميال تفصلني عنه، والعديد من الفوارق القبلية والطبقية. مع هذا كله، كانت مراسلته تسعدني، بل تجعلني مبتهجة لساعات طويلة. ولا أظنُّ أمي بذكائها وشدَّة انتباهها وتركيزها معي وتغيُّر أحوالي قد فاتها ما يحدث لي، على الرغم من أنني كنت أحاول إخفاء سروري وأتحاشى قراءة رسائله، أو الردّ عليها في وجودها.

أعرف أنني لا أفعل ما يعيب وصداقتنا هذه لم تتعدَّ حدود الرسائل الإلكترونية، ولا أظنّها ستتطوَّر أكثر من هذا، لأنه لم يلمِّح ولو لمرة منذ أن التقينا قبل ثلاث سنوات بأنه يحمل لي مشاعر خاصة، أو أنه راغب بالارتباط ولو بأي شكل من الأشكال. فهو لم يسألني حتى عن رقم هاتفي. وكأن العلاقة على شكلها الذي هي عليه أكثر راحة وأمانًا. وقد فكَّرت أكثر من مرة، حين يحتدم التحليل والتفسير في رأسي لشكل العلاقة التي تجمعني به، في أن هادي سعيد لا بدَّ يعرف الكثير من القارئات المعجبات، ولا بدَّ أن هنالك مريم الفاتنة وهدى الفاتنة ورباب وعليا وسوسن الفاتنات في حياته، فوضع البريد الإلكتروني آخر الرواية دعوة صريحة لكل الراغبات والراغبين بالتواصل معه. وقد أخبرني مرة بأنه يحبُّ التواصل مع الآخرين، لأن هذا يوسِّع مداركه ويساعده على رسم شخصيات رواياته وبنائها بطريقة أكثر موضوعية. وسألته إن كانت شخصيتي تصلح لأن تكون بطلة رواية أو حتى شخصية مساعدة. فقال إنها ستكون أجمل رواية تلك التي ستكتب عني. تجاهلت جملته كما أفعل في كل مرة يتغزَّل فيها بي.

أحسُّ بتوتُّر أمي عندما يكون الطبيب الذي يدخل إلى الغرفة رجلًا، تقترب مني فأشمُّ رائحتها، ويصبح صوتها واضحًا. بقي الرجل في الغرفة بعض الوقت، ثم خرج وعاد من جديد. سألته أمي بفضول:

- سامحني يا بني.. لكن ماذا تفعل؟

لم يجبها سريعًا وتخيَّلت أنه يتأمَّل وجهها، ويفكِّر في أنها تشعر بالملل وتريد التدخُّل في عمله.

- إنني أغيِّر جهاز معايرة الدواء، لأنه معطَّل.

- لكنه لم يصدر رنينًا كما يحدث دومًا.

- لأن العطل الذي حدث في الجزء المسؤول عن الرنين.

تخيَّلتها وهي تضع شيلتها على وجهها لتغطِّي وجهها عنه. وتصلح من أكمام يدها وتغطِّي كفَّيها وتترك أطراف أصابعها فقط مكشوفة. كانت يدها ترفع الغطاء عليَّ، وتغطِّي المنكشف من شعري. وددت لو تقترب أكثر وتضمُّني أو تطبع قبلة على خدِّي أو رأسي. بقيت أنام معها في غرفتها حتى دخولي للجامعة. أصبحت أتأخَّر في النوم ليلًا، لأعمل على المشاريع والواجبات التي تستغرق مني وقتًا طويلًا. وحتى بعد أن دخلت الجامعة كنت أتسلَّل إلى غرفتها مثل الأطفال، وأحشر نفسي في سريرها عندما يجفوني النوم. لا تأكل إلا معي ولا تخرج للسوق إلا بصحبتي. وكانت تعرف البنات اللاتي أسمِّيهن صديقاتي واحدة واحدة وتعرف أمهاتهنَّ. ولم تكن تسمح لي بالذهاب إلى بيوتهنَّ إن دعونني إلا برفقتها. وأنا على كل حال كانت صديقاتي قليلات. وفي الغالب كنَّ هنَّ يأتين إلى منزلنا، لأنني على عكسهنَّ لا يوجد في بيتنا رجال، ويرتاح أهلهنَّ لإرسالهنَّ إلى بيتنا لمعرفتهم بحرص أمي وتواجدها دومًا في البيت معي.

كنت مستسلمة لارتباطها بي وارتباطي بها، ولم أبدِ يومًا استياء من حرصها الشديد عليَّ، فهي أمي وتعرف مصلحتي وتخاف عليَّ. وكانت المرة الوحيدة التي شعرت فيها بأني مقيَّدة ومختنقة بقوانينها الصارمة هي حين

منعتني من الذهاب إلى الرحلة المدرسية خارج المدينة. بكيت كثيرًا وترجَّيتها مرارًا لتسمح لي بالذهاب، لكنها رفضت وقالت إنها غير مطمئنة لفكرة ذهابي في رحلة طويلة، ووعدتني بأنها ستأخذني إلى المدينة التي أخذوا البنات إليها، وستشتري لي ملابس، وأشياء جديدة من هناك. وفعلت، لكنني بقيت حزينة على تفويتي الرحلة مع بنات صفِّي. لقد كنت وما زلت محور حياة أمي بل حياتها كلها. وكثيرًا ما خفت من مجرَّد التفكير في أن يحدث أمر لي أو لها. لأننا أنا وهي مرتبطتان ببعضنا البعض ارتباطًا يشبه ارتباط الأم بجنينها، وكأن حبلًا سريًّا خفيًّا يمتدُّ بيننا.

شاهين

كل جريمة قتل تُترك بدون عقاب مقترفها تسلب شيئًا من الأمان في حياة كل رجل.

- دانيال ويبستر

كان الطالب الجديد ولدًا عليلًا، يضع نظَّارة سميكة تجعل عينيه الصغيرتين أكثر ضيقًا. أبله يبكي سريعًا عندما يضحك عليه الأولاد. يرشقونه بالحجارة، ويأخذون طعامه وأقلامه. مرة جاءت أمه إلى المدرسة لتشتكي على الأولاد الأشقياء. الغبيَّة جعلت الأمر يزداد سوءًا، لأن الأولاد صاروا يضايقونه أكثر، ويذكرون أمه ويصفونها، ويقلِّدون صوتها المرتجف وهي تصرخ عليهم، وتهدِّدهم بأنها ستضرب كل مَن يزعج ابنها. صار يجلس في مكان منعزل في ساحة المدرسة حيث يخفي طعامه ويتناوله على عجالة. راقبته وعرفت أنه يختبئ فيه ويبكي، ثم يسعل ويخرج دواء الربو، ويضعه في فمه، ويستنشقه حتى يهدأ. ثم يمسح دموعه ويأخذ أشياءه ويعود إلى الصف قبل أن يقرع جرس انتهاء الفرصة بثلاث دقائق.

كنا في مرحلة انتقالية بين الطفولة والمراهقة، تلك المرحلة التي يلزم علينا فيها الاندماج في عالم الكبار مع بقاء شيء منا في عالم الأطفال. صوتي يتغيَّر، ووجهي يتغيَّر، زغب مزعج ينمو في أماكن تحاشيت النظر إليها، وحذَّرتني عمَّتي دومًا من لمسها، أو السماح لأي شخص بذلك. وحين نظرت إلى نفسي راقني ما رأيت، إنني أتحوَّل إلى رجل وقريبًا سأتمكَّن من الانسلاخ من عالم عمَّتي التي جرحت براءتي بقصص الكبار التي تخبرني عنها، وقبلها أمها الشمطاء المجنونة التي زرعت فيَّ بذرة القاتل، وسقتها حقدًا وتدريبًا على القتل وسلب أرواح المخلوقات.

هكذا كنت أمنِّي نفسي دائمًا، بأنني قريبًا سأتمكَّن من الاستقلال بنفسي بعيدًا عنها وعن كل ما عشته. كان ما يزعجني في التغيُّرات التي تطرأ عليَّ، رائحة جسمي التي لا تطاق بعد عودتي من حصة الرياضة متعرِّقًا. ولم يكن هذا حالي وحدي، كل الفصل كان يتحوَّل إلى زريبة، كما كان يصفه المعلِّمون. كانت تنتابني مشاعر غريبة، في بعض الأحيان، وقلبي يخفق سريعًا حين أشاهد ممثِّلة جميلة، الأصوات الأنثوية صارت تؤثِّر بي بطريقة غير مفهومة. وهنالك أشياء أخرى تحدث ولا أفهمها. في المدرسة يحدِّثنا مدرِّس الدين عن أمور تخصُّ الرجال، لا أفهم الكثير منها، والأولاد يتضاحكون ويتهامسون. أشعر بغضب لجهلي، لاحقًا يقول أحدهم إن والده أخبره، وآخر يقول إن شقيقه الكبير أخبره، ولا داعي لأن يتحدَّث المدرِّس عن هذه الأشياء.

عمَّتي أخبرتني عن كل شيء، عن الغراميات والفضائح والخيانات، وأحيانًا كانت تحذِّرني من أن أفعل تلك الأفعال الشائنة، كما تصفها، ومرة أخبرتني، ولم أفهم لماذا، عن المرة الأولى التي حاضت فيها، وكيف أنها خافت من الأمر، وأخفته عن والدتها حتى اكتشفتها الأخيرة، واحتفلت بكونها أصبحت امرأة أخيرًا. لكنها لم تكلِّف نفسها لتخبرني عما كنت أمرُّ به. ربما كان هذا الدور الطبيعي لزوج عمَّتي بما أنه يقوم بمقام والدي وولي أمري. هو كان لديه شعر في إبطيه، ولم أرَه يحلقه يومًا. والمدرِّس كان يقول لنا إن من السنة نتف الإبطين.

مرة منعوا الصبي الأبله من الخروج من الصف في الفرصة. قالوا إنهم يجب أن يتأكَّدوا من أنه ينتف إبطيه؛ لأن الرائحة الكريهة التي تنبعث في الصف، ويشتكي منها المعلِّمون، تفوح كلما تحرَّك، ولا شكَّ إنها رائحته. أجبروه على خلع قميصه ورفع إبطيه اللذين كانا خاليين من الزغب. وتغامزوا ليتأكَّدوا من خلوِّ مناطق أخرى من الشعر. لكن أحد الأولاد منعهم، وجرَّهم معه إلى خارج الصف. لم تتوقَّف دموع الصبي وارتدى ملابسه واندفع نحو مخبئه وهو يسعل. اقتله، اقتله، اقتله. أطعت الصوت وتبعته. اقتربت منه قبل أن يخرج الدواء، والتقطته من حقيبته وقذفت به من سور المدرسة. صرخ الصبي وتعالى سعاله. كان لونه يتحوَّل من الأحمر إلى البنفسجي وهو يختنق.

راقبته بصمت، ودقّات قلبي تتسارع تمامًا كما تتسارع حين أشاهد ممثِّلة جميلة على التلفاز. حين توقَّف عن التنفُّس وسقط رأسه على الأرض. تركته متوجِّهًا إلى المقصف، وابتعت شطيرة وقنينة ماء.

"وضع الرب معيارًا لتقديم القرابين، ومثل كل معايير الرب وتشريعاته كان المعيار واضحًا. أن يكون القربان من أفضل ما يملك العبد. لكن قابيل قدَّم حزمة من زرع رديء فهو رجل زراعة وهابيل قدَّم معزة سمينة فهو صاحب غنم. فأنزل الرب النار على قربان هابيل فأكلته. ثار الأخ الأكبر قابيل فكيف يأتي الأصغر بأفضل ما يملك ويُقْبَل منه؟ عرف قابيل أن قربانه لا يليق بعظمة المقدّم إليه لكنه شحَّ وبخل، ثم غضب وحقد واقترف الذنب الكبير بأن قتل أخاه الصالح المؤمن. قبلها حين سخر قابيل من هابيل وحسده على كرمه وهدَّده بالقتل، حذَّره هابيل من عقاب الرب وبأنه سيحكم بينهما بالعدل وهو كما عرفوه يقبل قربان الصالحين حسب أعمالهم وقال هابيل بأنه حتى ولو أقدم قابيل على قتله فإنه لن يمدَّ يده ليقتله لأنه يخاف الله وسيتركه يتحمَّل ذنبه ووزر خطايا ضحيَّته ووزر كل الذين سيتبعونه من ذرية آدم ويقترفون معصية القتل حتى يوم الحساب. وخسر قابيل نفسه حين قتل أخاه. وجعل من نفسه نموذجًا للظالم العاصي الذي يقتل حتى أقرب المقرَّبين منه بلا رحمة".

لكل فعل يوجد مرة أولى، وأغرب أولى المرات هي المرة الأولى في القتل. اللحظة التي تعي فيها أنك سلبت أحدهم روحه. إنها تشبه لحظة صراخ الطفل حين يخرج من رحم أمه. الفارق أن الطفل يأتي إلى الحياة والقتيل يخرج منها. بقيت مقتنعًا لوقت طويل بأن أولى جرائمي هي جريمة قتل أختي التوأم التي أجهضتها أمي لأبقى أنا.

كنت صغيرًا جدًّا وعاجزًا عن خنقها بيدي اللتين لم أعرف بعد كيف أطبق بهما على عنق أحد ولو كنت أعرف، ما كنت وصلت إليها، وهي في مشيمة منفصلة. والقطة التي فقأت عينيها ثم حطمت رأسها بحجر، لم أشعر بعد أن ماتت بأي ذنب ولا خوف. تركتها مكانها ومضيت، لم تراودني أحلام مزعجة كما حدث حين قتلت العقرب والسحلية، وخنقت الكتكوت الهارب من قنِّ الدجاج. لم تكن رؤية القطط تجعلني أرتبك وأتوتَّر. على العكس، فكَّرت في طرق

مختلفة لقتل القطط السائبة والأخرى التي لا يحلو لها أن تجد الطعام إلا في بيتنا، فتتسلَّل إلى المطبخ ليلًا، وتوقظني من النوم لاصطدامها بغباء بالأواني والصحون في محاولاتها المخفقة للخروج من النافذة.

بحركة آلية أدرت المفتاح مرّتين، ودخلت الغرفة على عجالة. أفرغت مثانتي في الحمام، وخرجت متوجِّهًا نحو النافذة باحثًا عن مبروك، لكنني لم أجده. لم أتمكَّن من إخراجه من رأسي. فكَّرت به طيلة ساعات العمل، وتخيَّلت الطريقة التي سأسلب بها حياته. اقتله فهو عجوز ونحيل، ولن يستغرق الأمر أكثر من بضع دقائق، لتجهز عليه.

وضعت خطة لاستدراجه إلى البيت المهجور قرب المقبرة؛ حيث ينام ويتسكَّع في الأوقات التي لا يكون فيها واقفًا، يستجدي الناس في الشارع. فكَّرت في أنه سيكون هناك، ربما يأخذ قيلولة أو يحسب المال الذي جمعه منذ الصباح. سلكت الطريق الخلفي نحو المقبرة مشيًا ووصلت إلى وكر مبروك في أقلِّ من عشر دقائق. لم يكن هنالك أثر لمبروك خارج البيت. دفعت الباب ببطء وسرت بضع خطوات، فاستقبلتني روائح نتنة وخرجت ثلاث قطط سائبة من كومة القذارة التي تعود لمبروك بلا شك.

تخطَّيت القطط ودلفت نحو الغرفة التي ينام فيها، فرأيته هناك ممدَّدًا على الأرض لا يتحرَّك. رفست قدمه لأوقظه إن كان نائمًا، لكنه لم يحرِّك ساكنًا. لمحت بقع دم على الفراش حيث ينام. جلت ببصري ورأيت الغرفة مبعثرة وكأنها قد تعرَّضت للسطو. هنالك مَن سبقني إليه إذًا، شعرت بالغضب يطوِّقني. وخرجت من البيت عائدًا إلى غرفتي. المقبرة قريبة من وكر مبروك، سيدفنونه قرب وكره، قلت في نفسي.

ريما

يكاد الفشل في الحب يكون مثل القتل.

- بوريس باسترناك

لا أدري لماذا ينصحوننا دائمًا بنسيان الماضي وكثيرًا ما يحذِّروننا من العودة إليه، وكأن كل ما عشناه بالأمس، لم يكن سوى آلام ومتاعب يجب أن ننساها أو نتناساها، لنتمكَّن من المضي نحو حياتنا القادمة، مغفلين أن الماضي يحمل الكثير من الذكريات الجميلة التي ربما تكون أجمل مما نعيشه اليوم، ومما قد نعيشه في الغد. هنالك أناس لم نعد نراهم اليوم، وأصدقاء عشنا معهم أجمل الأيام، هنالك مواقف جميلة وضحكات وابتسامات مع أشخاص أحببناهم وما زلنا، لكن الحاضر بمشاغله أبعدنا عنهم، والمستقبل بمفاجآته لا يضمن أن نلتقيهم. وأنا ممدَّدة على السرير هذا والأجهزة التي تطنُّ قرب رأسي، كل ما أملكه هو الماضي الذي عشته والذكريات التي صنعتها قبل الحادث. وربما كانت هذه الذكريات هي التي تبقيني متمسِّكة بالحياة، وراغبة في أن أصحو من غيبوبتي هذه، لأصنع ذكريات جديدة ومختلفة.

أحبُّ أحيانًا أن أتخيَّل ذكريات الآخرين وماضيهم. هذا الصوت الرجولي الذي ليس للطبيب، ولكنه صار يتكرَّر ويتردَّد هنا، حتى أن أمي تبدو لي من صوتها وطريقة كلامها أقلّ توتّرًا لاعتيادها على وجوده. أتخيَّل شكل الذكريات التي يسترجعها هذا الشاب. والماضي الذي عاشه، لا بدَّ أنه يملك أسرة كبيرة وأمًّا حنونًا وأبًا طيِّبًا، وأتخيَّل أنه سافر إلى بلدان كثيرة، وربما وقع في الحبِّ أكثر من مرة، ولعلَّه الآن متزوِّج وله أسرة. أسمع صوت أمي:

- أبويه إنت شو اسمك؟

- شاهين.

تتمتم: جزاك الله خيرًا يا ولدي.

يردُّ هو باقتضاب: إنه عملي.

ثم أسمع صوت الباب وهو ينغلق. تتنهَّد أمي وتحوقل. ثم تكرِّر الحوقلة. أسمع صوت خرزات مسبحتها. إنها تحوقل مئة مرة. أتخيَّلها وقد أصبحت نحيلة، وبرزت عظام وجنتيها. في الأصل أمي وجهها نحيل وقد ورثت منها هذا الشيء. ولا بدَّ أنني نحلت أنا الأخرى، وصرت أكثر شبهًا بها. في طفولتي كنت أشبه أبي، كانت تقول. ثم ولأن البنت "أم سبع طلعات" تغيَّرت وصرت أشبهها. أنا وهي نشبه جدِّي. جدِّي الذي أحبَّها ودلَّلها. وأعطاها لوالدي، لأنه يعرف إنه سيدلِّلها وفعل. رحلا تباعًا وبقيت أمي وحيدة، معها أنا التي كبرت سريعًا كما تقول لي، وكبر معي الهمّ الذي تحمله.

- هل أنا همّ يا أمي؟

- أنت العوض الذي منَّ الله به عليَّ، لكن أنا مكلَّفة أمام ربِّي بحسن تربيتك وحمايتك. أنت لست همًّا يا حبيبتي، الهمّ في صدري أنا.

ربما كانت أمي محقَّة حين خشيت أن أكشف حياتنا، لو وافقت على أن أكتب رواية، بدون شعور مني أجدني أصوِّر شخصيتها كما هي، وأقتبس عبارات تقولها، حتى علاقتي بها أكتبها على حقيقتها. هادي يقول إنه يمكنني التعديل لاحقًا على الرواية، وحذف التفاصيل التي لا داعي لها. لهذا كنت أكتب بدون خوف من شيء، فالمجال للعدول عن أية فكرة في الرواية متاح. وقد جرَّبت أن أضع حدودًا لنفسي وأجبر نفسي على الكتابة بشروط مسبقة، فوجدت أنني أستصعب الكتابة وأتوقَّف طويلًا لإيجاد أفكار بديلة عن الأفكار التي تخطر ببالي وأنا أكتب. لهذا كتبت لهادي أسأله عن هذه المعضلة التي أمرُّ بها، فطمأنني، ونصحني بالكتابة كما أعرف وأريد، ولاحقًا يمكنني التعديل والتنقيح. ثم إنني كما أخبرته لن أقوم بنشر الرواية فلِمَ أفكِّر كثيرًا في الأمر، وأقلق من التفاصيل التي تنكتب معي في الرواية المحبوسة في المدوَّنة المغلقة؟

ممرِّضتان تدخلان الغرفة، تحدثان جلبة أعرف منها أنه موعد تنظيفي وتغيير ملابسي. تقف أمي متهيِّئة، لا تسمح لهما بلمسي، تقوم هي بفعل كل شيء، تمسح جسمي بمعقِّم وتغسل وجهي بالماء والصابون، تسرِّح شعري وتلبسني ثيابًا نظيفة ترشُّ عليها رشَّات من عطري المفضَّل، تبقى رائحة (Armand Basi In Red) تنعشني لساعات من اليوم. تترك الممرِّضتين تغيِّران أغطية السرير، بعد أن تقوما بنقلي إلى سرير مؤقَّت، ثم تعيدانني إلى سريري. لطالما أخافتني فكرة أن أنام في مستشفى، ولا أتمكَّن من الحراك، والذهاب إلى الحمام بنفسي. كانت إحدى البنات في المدرسة قد أُجريت لها عملية، وذهبنا لزيارتها في المستشفى. أمي وافقت لأن الزيارة كانت لمستشفى داخل المدينة ولزيارة مريض. كان هنالك كيس ممتلئ بالبول يتدلَّى من سرير البنت. وجاءت الممرِّضة، لتفرغه لأنه كان قد وصل إلى حافة الامتلاء. تعثَّرت الممرِّضة بالأنبوب وانسكب البول، تسبَّب الأمر بفتح جرح في جسم الفتاة وتلطَّخ الغطاء بالدم، فانفعلت والدتها، وبقيت تصرخ، لتنفجر البنت بالبكاء ونحن مشدوهات من الموقف المزعج. لم تعد البنت إلى المدرسة، فقد كان الموقف برمَّته محرجًا ولا يصدَّق. أخبرت أمي بما حدث، فاستاءت متعاطفة مع البنت، لكنها قالت إنها أمور واردة. قلت لها إنني لا أريد أن أنام في المستشفى، حتى لا يضعوا لي كيسًا أتبوَّل فيه. ضحكت وقالت إنها لن تتركني تحت رحمة الممرِّضات لو حدث ونمت في المستشفى لا سمح له. ارتحت لأنني أعرف أن أمي لن تتخلَّى عني يومًا وستكون معي كما كانت دومًا.

تذكَّرت رواية لهادي، اسمها "الأزهار تموت"، ابتعتها لاحقًا ضمن مجموعة رواياته الست. فكرة الرواية غريبة، صاحب محل أزهار لا يحبُّ أن يهديها لأحد، ويردِّد دومًا عبارة "لا أزهار، الأزهار تموت". الرواية عن الازدواجية التي نعيشها في حياتنا والأفكار التي نزعم بأننا نتبنَّاها ثم نسلك سلوكيات تكون معاكسة لتلك الأفكار. لماذا تبيع الأزهار إذن؟ لأن الناس يحبُّونها. كم من أشياء نفعلها، لأن الناس يحبُّونها، ولأن الناس يريدون منا أن نفعلها، ولو لم نفعل نكون قد انحرفنا عن الصراط الذي يسلكه الجميع. في حين أن كثيرًا من

الناس يطالبوننا بفعل أمور، هم لا يفعلونها بالضرورة، لكنهم ينصبون أنفسهم أوصياء علينا، ويسمحون لأنفسهم بأن يقرِّروا ما يصلح لنا، وما لا يصلح.

هم في الحقيقة لا يسمحون لأحد بأن يتدخَّل في شؤونهم، ويقدِّم لهم النصح، فهم يجدون في ذلك تعدِّيًا على خصوصياتهم. صاحب محل الأزهار ذلك يبيعها لأنها تدرُّ عليه المال، بغضِّ النظر عن قناعاته وأفكاره. وما أكثر الأشياء التي نفعلها، ونحن مقتنعون بعدم جدواها أو حتى جوازها. تراسلنا كثيرًا أنا وهادي بعد أن أتممت قراءة تلك الرواية. قال إنه معجب في قدرتي على الفهم والتحليل، وإنه كان محبطًا، لأن الأفكار التي طرحها في الرواية لم تصل كما كان يرجو إلى القرّاء بالطريقة التي رغب بأن تصلهم. قال إنني واسيته ولو لم يقرأها قارئ سواي لكفاه أني قرأتها. لو كان هادي بائعًا للكلام لاشتريته منه. فهو ينظِّمه وينسِّقه بطريقة تجعلني أتشوَّق للمزيد من رسائله. على الرغم من الشعور العميق بالذنب، من إخفائي أمر مراسلاتي معه عن أمي، أمي التي لا يخفى عليها شيء يخصُّني.

شاهين

الخوف يقتل الناس أكثر من الموت.

- جورج س. باتون

من مال الله روزنة، من مال الله روزنة. كانت جدَّة جدَّة أمي حسنوه روزنة والتي سُمِّيت أمي باسمها، فتاة فقيرة جاهلة أُعجِب بها تاجر غني وتزوَّج بها، أسكنها في منزل كبير وكان كثير السفر، كلما همَّ بمغادرة البيت ترك لها مالًا على الروزنة وهي تجويف كان يُصنع في البيوت القديمة على شكل مستطيل مقوَّس من الأعلى ويستخدم لوضع الأغراض فيه، فتقوم الفتاة الجاهلة وتأخذ المال وتخبِّئه. وحين يعود زوجها يبقى أيامًا قليلة، ثم يترك لها المال في المكان نفسه؛ حتى ظنَّت أن الروزنة هي التي تعطيها المال. وفي مرة تأخَّر الزوج في عودته، وتأخَّرت الروزنة في منحها المال. فجلست الجاهلة قربها تمدُّ يدها وتقول: من مال الله روزنة، من مال الله روزنة. دخل زوجها ورآها تمدُّ يدها للروزنة، وهي زوجة التاجر، ففتح صندوقها ووجد المال الذي جمعته طيلة سنوات زواجها به، فبغض حرصها الشديد وجهلها وطلَّقها، وشاعت القصة بين الناس حتى صار لقبها ولقب أبنائها وبناتها، قوم روزنة.

مرَّت السنوات وضاعت القصة، وولدت حسنة بعد مئة عام من قصة جدَّتها الجاهلة. لكن الشمطاء لم تنسَ القصة التي سمعتها من جارتها حين ذهبوا يسألون عن الفتاة التي سيتزوَّج بها ابن شقيقها. لم تعجبها الفتاة، لأنها وجدتها غير لائقة بابن شقيقها المفضَّل. غير أنه أصرَّ وأخذها ثم ماتت، وجلبت له النحس، فمات هو تاركًا لها ولدًا صنعَتْ منه قاتلًا.

"والتصق العار والخزي بقابيل حين عجز عن التخلّص من الجثَّة بعد أن أزهق روح أخيه. فبعث الله غرابًا جعله يحفر الأرض ويدفن غرابًا آخر كان قد نفق. فتملَّكه الشعور بالذنب وأدرك كم هو مروّع أن يقتل المرء شخصًا ما، والأكثر مرارة هو أن تكون الضحيَّة من لحمه ودمه، أخوه المؤمن البريء الخالي على عكسه من الشرِّ. لكن لم يكن من سبيل للتوبة أو الرجوع عن الذنب. فهابيل مات، ويجب أن يدفنه ويخفي جريمته تحت التراب".

أتساءل دومًا: هل كان شكل البشرية سيكون مختلفًا لو أن هابيل هو الذي قتل قابيل؟ ربما لم أكن أنا لأوجد، أو أنني كنت سأخلق على صورة مختلفة، وأعيش حياة مختلفة وفي بلاد أخرى بعيدة. كيف كانت الحياة لتصبح لو أنهما لم يقدِّما ذلك القربان، ولم يقعا في حبِّ الأخت نفسها. يروي الجميع قصة القربان المقدَّم للرب. لكن قصة الحقد الحقيقي الذي امتلأ به قلب قابيل القاتل لم يُحْكَ عنه كثيرًا. إنه الحب. الدافع الأكبر لجرائم القتل في العالم. الحب أو انعدام الحب، الأمر سيان. قابيل أحبَّ "إقليما" التي وُلِدت معه من بطن واحدة، وكان من آدم ألَّا يزوِّج الإخوة من البطن الواحدة، وكانت "إقليما" الجميلة لتتزوَّج من هابيل، وقابيل أن يتزوَّج من "لبودا" الدميمة. فحقد قابيل على هابيل وثار، فأمر أبوهما بأن يقدّما قربانا. وحين قبل الرب قربان هابيل حدثت جريمة القتل الأولى.

ليتني عشت سنوات أطول في بيتها، وليتها عاشت سنوات أطول في المستشفى، وبقيت تتعذَّب بجهاز غسيل الكلى الذي يتركها مثل جثَّة هامدة ليومين تعود بعدهما لعمل الغسيل مرة أخرى. كنت ملأتُ غرفتها بالسحالي والعقارب. وحفرت روزنات على جدرانها الأربع. وكتبت اسم أمي حسنوه روزنة على فراش سريرها، وعلى سقف الغرفة، ووشمته على كفِّ يدها. تلك اليد التي قرصتني وصفعتني وضربتني مرارًا بالعصى. يد العجوز الشمطاء المجنونة. لكنها ماتت ميتة لا تليق بها، ميتة لا تكفي لحجم الشر الذي صبَّته عليَّ صبًّا. لا يستحقُّ الجميع الموت بالطريقة نفسها، البعض يليق به الرمي بالرصاص، والبعض يليق به الخنق، آخرون يستحقُّون الحرق وآخرون الطعن حتى الموت. وقد فكَّرت في كل الطرق الممكنة للموت، حتى أنني صنعت

قائمة قد أشارككم إياها لاحقًا. ولا أدري لماذا كتبتها، لأنني أعرف أنني لن أعود إليها لأنتقي الطريقة المناسبة لقتل أحدهم. لكنها جاءت في لحظة توفّر فيها قلم وورقة أمامي وفوج من مشاعر حارقة، ولم أجد نفسي إلا وقد رصصت الطرق الممكنة للموت أو القتل كما أحبُّ تسميتها. وصنعت قائمة أخرى للأسباب التي تدفع المرء للقتل. وما أطول تلك القائمة التي خرجت من بين يدي. وربما كانت تلك المرة الأولى التي شعرت بها بالاستياء نحو نفسي.

على الرغم من أنني لم أندم يومًا على قتل أحد ممَّن أزهقت أرواحهم. ولعلَّها كانت إحدى اللحظات النادرة من لحظات الضعف التي تتملَّكني، أكون فيها قد استنزفت نفسي جسديًّا وفكريًّا، فأجدني محصورًا في زاوية من الهشاشة والميل للانكسار وحتى الاعتراف بكل ما اقترفت يداي من شرور حسب تصنيف الآخرين. أقول هذا لأن القتل ليس شرًّا في كل حالاته. وحتى في الوقت الذي يجده أحدهم شرًّا فهو بالنسبة لشخص آخر خيرًا بل خيرًا كثيرًا. ففي الراحة الكثير من الخير وفي التخلُّص والترك خير، وفي إيقاف الشرور التي تنبع من شخص سيِّئ خير على الناس الآخرين الذي يمسُّهم الشرّ الذي يأتي منه.

لكن هذا الكلام كله لا ولن يروق للغالبية، وآخر ما يهمُّني أن يروق ما أصنع أو أفكِّر وأعتقد للآخرين. أنا أقتل لأنني محاط بأشياء لا تتوافق مع رغباتي، أشياء تُخْرِج أسوأ ما فيَّ. تضعني في مواجهة مع نفسي التي لا أحبُّها "ربما" ومع الأشخاص الذين لا أطيقهم. سيقول لي أحدهم: لست مضطرًّا للبقاء. ارحل فالدنيا كبيرة والأرض واسعة. وسأردُّ عليه: لماذا أرحل أنا؟ هنالك حلّ أسهل، أن أتخلَّص منهم، وأجعلهم يرحلون. الضعفاء والسيِّئون رحيلهم أفضل. القتلة هم أسوأ مخلوقات الله. سمعتها من محامٍ في لقاء على المذياع. لا يحقُّ لأي أحد أن يسلب الناس حياتهم قال. اتصلت مرارًا بالإذاعة لأخبره بأنني أريحهم من حياتهم وأريح المحيطين بهم من وزر احتمالهم وهم على قيد الحياة. لم أتلقَّ ردًّا على اتصالاتي وشعرت بالدم يفور في رأسي. ربما كنت من أسوأ مخلوقات الله، لكنني في النهاية أقوم بتطهير هذا العالم من المخلوقات الأكثر سوءًا مني.

ريما

لسنَا ننشد عالمًا لا يُقتل فيه أحد، بل عالمًا لا يمكن فيهِ تبرير القتل.

- ألبير كامو

لقد تعرَّضت للحادث في الأول من يونيو. لا أعرف كيف تذكَّرت التاريخ، كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحًا. قلت في نفسي: انقضت الأيام سريعًا، وتذكَّرت أنني انتظرت أن تدقَّ الساعة مشيرة إلى الثانية عشر ظهرًا. كان ذلك قبل بضعة أشهر، وكأن هذا اليوم كان بالأمس. كان البرد قارسًا، غطّيت نفسي واستسلمت للنوم قرب أمي. رغبت فقط في الاستماع إلى الساعة، وهي تدقُّ لأتأكَّد أني ما زلت على قيد الحياة، وأن أذنيَّ ما زالتا بخير، وأنني ما زلت قادرة على سماع الساعة وهي تدقُّ.

لا أعرف ما الذي يصيبني بداية كل عام. يصيبنا أنا وأمي في الواقع. فهي كذلك لم تَبْدُ بخير. كانت قد غرقت في النوم قبلي. وفي كل الحالات، لا تعترف أمي بالاحتفال برأس السنة، كما لا تحتفل بأعياد كثيرة، لدينا عيدان، تقول، لا ثالث لهما. هادي بعث إليَّ برسالة، منذ التقينا وهو يرسل لي معايدات في رأس السنة، ويكون أول مَن يهنِّئني بعيد ميلادي. كتب: ريما، كل عام وأنت فاتنة وبعيدة مثل نجمة. كتبت ردًّا على رسالته: كل عام وأنت كاتب لا يشبه إلا نفسه. في محاولة لمجاراة إطراءاته وتلميحاته التي باتت تحيِّرني. أخبرت نفسي بأنه هادي سعيد. ولو لم يغازلني بهذه الطريقة مَن تراه سيفعل.

أطفأت هاتفي، ودفنت رأسي في ظهر أمي، انقلبت هي نحوي وضمَّتني، ونمت تلك الليلة في حضنها. في الصباح أرسلتْ أكياس أرز وطحين وزجاجات زيت وأشياء أخرى لعائلات فقيرة اعتادت أن ترسل لها في منتصف

شعبان وفي رمضان. مازحتها: هل صرنا نوزِّع المير على الناس في رأس السنة؟ قالت: إنها حلمت بأبي، وهذه صدقة عنه. غبطتها لأنه يزورها دومًا في الحلم، وأغبطها كل الوقت؛ لأنها عرفته، وعاشت معه عامين قبل أن يسرق ذلك القاتل عمره، ويحرمنا منه.

لا أحد ينتظر منتصف العام، ولا أحد يحتفل به. وأظنني لو صحوت من غيبوبتي هذه، سيكون منتصف العام أسوأ يوم وأسوأ ذكرى تمرُّ علينا أنا وأمي. لعلِّي الوحيدة التي كانت تترقَّبه في السنوات الماضية بهدف محاسبة الذات، ومعرفة ما مرَّ عليَّ في ستة الأشهر الماضية، وما ينتظرني في الأشهر القادمة. وجدت أنني لم أحقِّق شيئًا يُذكر، جمعت همومًا وإحباطات، واحتفظت ببقايا أحلام مشوَّهة، كلما نظرت فيها ذكَّرتني بأشهر ستة ضاعت عبثًا، كما ضاعت قبلها أشهر وسنوات. ولا أعرف لماذا يلازمني هذا الشعور دومًا، بأنني متأخِّرة عن الآخرين وغير راضية كل الوقت عما أنجز. حفصة كانت تسمِّيني الساخطة، وتذكِّرني دومًا بالنِّعَم التي أملكها، وتقول إن عليَّ أن أتذكَّرها وأحصيها وأمتَنُّ لها. لا أعرف يا حفصة لكنني أشعر دومًا بأنني مقصِّرة في حقِّ أمي وفي دراستي، في الرواية التي لم أكتب شيئًا فيها منذ مدّة، وكلما جئت لأكتب انتابني شعور بالذنب، لأنني أبدِّد وقتي في ترهات لن يقرأها أحد، ترهات حذَّرتني أمي من الخوض فيها.

كان آخر ما كتبت فيها عن حادثة موت إحدى شخصيات الرواية. صنعت شخصية مرَّت بظروف تشبه ظروف موت أبي، الظروف التي أخبرتني عنها أمي على الأقل. تاجر ثري يقتله أحد العاملين في شركته، ولا أحد يعرف الأسباب، القاتل اعترف بجريمته بعد أن دوهم في المطار، وهو يحاول الهرب. كان والدي في الاستراحة المطلَّة على جبل حفيت. اعتاد أن يقابل فيها أصدقاءه والعاملين في شركته. أمي كانت في منزل جدِّي، وستقضي الليلة هناك. قال القاتل إن والدي بخسه حقَّه، وفي لحظة غضب قتله. لكن الجريمة كانت مع سبق الإصرار، فلماذا يتصل القاتل بوالدي، ويطلب منه مقابلته عند قمة الجبل؟ حضر العامل ومعه مسدس محشو. ركب مع والدي في سيارته، وتجادلا طويلًا، نزل من السيارة، وقاد والدي سيارته وحيدًا نحو الأسفل،

انحرفت السيارة عن مسارها واصطدمت بحاجز السلامة، لتسقط إلى الأسفل. بقي هناك لساعات حتى تمكَّنوا من انتشاله. وجد الطبيب الشرعي رصاصة مستقرَّة في قدم والدي ووجدوا في حساب العامل مئات الآلاف التي اختلسها من الشركة، واقترف جريمته، وكاد يهرب.

مستحيل أن يبخس أبي حق أحد، لقد كان رجلًا طيِّبًا، والكل يحبُّه. بعد موته عرفتُ من أمي عن أعمال الخير التي كان يقوم بها، ولا أحد يعرف عنها. إخوتي رفضوا الاستمرار فيها، فأكملت أمي ما بدأه. لقد كان يتنازل عن حقِّه، حتى لا يجرح أحدًا أو يحرجه، ويقول إنه يتركه لهم متصدِّقًا عليهم والله سيعوِّضه. وحتى وإن كان والدي سيئًا، هنالك قانون يمكن للعامل أن يلجأ له، لا شيء يبرِّر القتل. ولا يحقُّ لمخلوق أن يسلب حياة مخلوق آخر، ويحرمه حقَّه في الحياة، ويحكم على أهله بالعيش من دونه. أمي تقول إنه أمر الله المكتوب علينا. عمر والدي انتهى في تلك اللحظة وفي ذلك اليوم، ولو لم يمت على يد العامل كان سيموت بطريقة أخرى. لكن حسرة موته مقتولًا أكبر من أي حسرة أخرى. تتنهَّد أمي في كل مرة تذكر فيها والدي، وتترحَّم عليه، وعلى والديهما: رحم الله سالم ورحم والديَّ ووالديه وجمعني بهم جميعًا في جنَّاته.

كنت ذاهبة للتسجيل في الفصل الصيفي الذي سيبدأ بعد أسبوعين. وحتى اللحظة الأخيرة كانت أمي سترافقني إلى الجامعة لكنها استيقظت من النوم بنوبة من الشقيقة تجتاح رأسها. أقلقني الأمر وسألتها مرارًا عما إذا كانت متضايقة من شيء ما، فهذه النوبات لا تزورها إلا عندما يكون هنالك خطب ما، لكنها نفت الأمر. تردَّدت في الذهاب ثم قرَّرت الانتهاء من الأمر الذي سيكلِّفني تأجيله فصلًا إضافيًّا أطول مدَّة من الفصل الصيفي. كان يمكن أن أقوم بالتسجيل عن بعد، لكن بسبب عطل في نظام الجامعة جعلوا التسجيل يدويًّا. ولأنه كان اليوم الأخير للتسجيل فقد اضطررت للذهاب. أتخيَّل أمي وهي تلوم نفسها مرات ومرات على تركي أذهب وحيدة في ذلك اليوم المشؤوم. ولأن أمي مؤمنة فهي لن تقول عنه يومًا مشؤومًا، فكل شيء مقدَّر

ومكتوب، لكنها تلوم نفسها على أنها بسبب الصداع أخذت مسكنًا قويًّا، ونامت ولم تكلِّمني، انتابتني تلك الأفكار الثقيلة، ثم حدث الأمر.

شاهين

أعتقد أن ما يوحِّد الكون ليس الانسجام، بل الفوضى والعداء والقتل.

- فيرنر هيرزوغ

إنه واحد من تلك الأيام الساخنة، حين تشعر بأنك مهما تخفَّفت من ثيابك، مهما تناولت من مشروبات باردة، مهما فعلت، ستبقى تشعر بأنك وكل ما حولك يغلي. وأنا أمقت الصيف، شيء في حرارة الطقس يجعل الغضب في داخلي يتأجَّج. مع هذا كنت مجبرًا على الخروج، مثل كل يوم أكون فيه مجبرًا على الخروج والالتقاء بالناس، والتعامل معهم، والاحتكاك بهم. في الصيف تفوح رائحة النهر بطريقة مقزّزة. يبدو الناس القذرون أكثر قذارة. أخرج من الفندق، وأركب أول سيارة أجرة تقف أمامي. ألتزم الصمت والسائق يثرثر ويسألني عن وجهتي. أخبره بأنني ذاهب إلى الزمالك. لو كان الطقس أفضل لمشيت إلى هناك، لكنني لن أحتمل الحرارة والضوضاء.

بَدَت المسافة أطول من المعتاد؛ قبل يومين لم يستغرق الوصول أكثر من عشرين دقيقة. إنه أول يوم في إجازة الصيف، الناس تخرج لتفسِّح أبناءها. هل تفسَّحت في القاهرة؟ ألتزم الصمت متشاغلًا بهاتفي. ما لك يا راجل؟ إنني أكلِّمك. أبقى صامتًا، وأحاول تمالك نفسي، ثم أطلب منه التوقُّف. أترجَّل من السيارة، وأدفع المبلغ الذي دفعته قبل يومين. يقول إن حسابي خمسون جنيهًا. أنظر نحوه وأصرخ: هل أبدو لك أبله؟ توكَّل على الله، وأصفق باب السيارة. يرفض التحرُّك ويصرخ وهو يحرِّك يديه في الهواء، فأمضي، وأختفي بين الأزقَّة. لا تزال وجهتي على بعد خمس دقائق من المشي. أتوقَّف عند بقالة محشورة في ممرٍّ ضيِّق وأبتاع قنينة ماء وعلكة، أفرغها في جوفي. يتصل الوسيط: أين أنت يا أستاذ؟ أكاد أصل. عاوزين نلحق على الغدا، وأنت تفضل

معانا، غدانا محاشي وحمام. أصل وأجده واقفًا يدخِّن وعلى الأرض أربعة أعقاب أو خمسة، يقول إن المشتري لم يصل بعد، وإنه لو كان مكاني لاحتفظ بالشقَّة. لا أعلِّق، ويتبع: وبعتها رخيصة. إنها تساوي أكثر من مليون جنيه. أتذكَّر حديثه قبل أن آتي لإنهاء إجراءات البيع، وإنني لو تأخَّرت في بيعها سوف يهبط سعرها في السوق. أنتبه إلى إصبع زائد في يده اليمنى، وينتبه هو إلى الأمر، فيقول: أيوه أيوه بالضبط زي ما انت شايف، أنا عندي اتنا عشر صباع، لهذا أنا رجل مرزوق، الحمد لله القرش جرى في إيدي منذ نعومة أظافري الاثني عشر. يقهقه مفتخرًا بالميزة التي لديه، وينفث الدخان مبتسمًا. أتجاهل حديثه وأنظر نحو الساعة. أسأله إن أكَّد على المشتري بضرورة تحويل المبلغ اليوم. يقول إنه في البنك، وسوف يجلب إيصال الإيداع معه. يقترح أن ندخل إلى المكتب حتى يصل الرجل ويقودني إلى الداخل.

بقي يثرثر، وأنا كنت منشغلًا بالسيدة التي سمعت تفاصيل مكالمتها مع والدتها بينما أجلس في مقهى ومطعم الجزيرة على النيل. فهمت منها أنها خارجة لتوِّها من المستشفى. وعلى الطاولة ملفٌّ كبير تشير إليه، وهي تكاد تبكي معاتبة والدتها التي لم تسأل عنها لأسابيع. أنت لا تعرفين عني شيئًا. أخبرتك بأنني ذاهبة للمستشفى. لم تسأليني حتى عن السبب. ألست ابنتك؟ ألا تقلقين عليَّ؟ لكن لو كانت ابنة جارتك التي ذهبت إلى موعد في المستشفى، ستتصلين بها لتطمئنِّي عليها، لكن أنا بالناقص. قالت كلامًا وجدت أكثره بلا فائدة؛ ولماذا العتاب الأهوج وهي جالسة في المقهى وبين الناس. قفزت في رأسي ذكريات ذلك اليوم الذي سقط فيه الدكتور نصار من عيني. وأصبح أحد أولئك الذين أضعهم في قائمتي السوداء وأجهز عليهم، بعد المكالمة التي سمعتها كاملة بدون قصد في التلصُّص عليه. ارتفع صوت السيدة، واختنقت بدموعها. لكنها لم تغلق الهاتف، وبقيت تجترُّ القصص والذكريات، وتفتح الجروح القديمة. شعرت بأنني محظوظ لأنني بلا أم أو أهل وعائلة، ولا حتى أصدقاء. فمواقف مثل هذه ليست سوى نتاج التعامل والاحتكاك مع الآخرين تحت مظلَّة العلاقات الإنسانية، والواجبات الاجتماعية.

مَن قال إن على والدتها أن تسأل عنها، وتكون قربها؟ لتعرف عن نتائج فحوصاتها ومرضها. إنها لا تبدو لي مريضة في الأساس. وأي مرض عضال هذا الذي يذهب المرء بعده للتمتُّع بالجلوس على النيل، وتناول المثلجات ورشف القهوة مع صديقة تتبادل معها أنبوب الأرجيلة في صمت، انزوت بنفسها مع هاتفها، وأنبوب الأرجيلة الذي تمدُّه الأخرى إليها حين يعلو صياحها في الهاتف. كانت الدقائق ثقيلة، وأنا مجبر على سماع تلك المحادثة السخيفة. وودت لو أنني أملك ذلك المطعم، لأقوم بطردها منه في الحال. ولو لم يكن المكان مكتظًّا بالناس في تلك الساعة من النهار، لكنت تخلَّصت منها برميها في النيل، وأرحت العالم منها ومن كثرة شكواها، وأسكتت صوت الشمطاء الذي يعلو في رأسي.

وصل المشتري بعد نصف ساعة، بدا رجلًا من الطبقة الغنية، لم أرَ سيارته لكنني أتخيَّل أنها مرسيدس يقودها سائق. سبقه عطره إلينا، وهو يلبس قميصًا خفيفًا، ويرتدي جينزًا داكنًا وحذاءً رياضيًّا. تحدَّث بلهجة أصحاب الطبقة الغنية، لكن باحترام بالغ. استظرف المرزوق ذو الاثني عشر إصبعًا يلومه على تأخيره. اعتذر وقال بأنه علق في الزحمة، بسبب حادث مروري. بقيت صامتًا، أبتسم باقتضاب، وأنتظر أن ينتهي هذا الأمر سريعًا، لأعود إلى غرفتي وعملي، وقَّعنا على عقد البيع وتصافحنا، وقام المرزوق ذو الاثني عشر إصبعًا بإخراج هاتفه راغبًا بالتقاط صورة لنا. منعته بحركة عصبية فعلَّق مازحًا بأنها لحظة تاريخية بأن يشتري ابن البلد شقَّة من خليجي. ثم رنَّ هاتفه فارتبك، واستأذن بالذهاب، لأنه على موعد مع مشترٍ وبائع آخرين. ارتخت أعصابي حين غادر واستأذنت من المشتري الدمث للذهاب. عرض عليَّ أن يوصلني إلى الفندق لكنني شكرته، وقلت إنني أفضِّل المشي والتجوُّل في المنطقة، لأن لديَّ بضع ساعات قبل موعد الذهاب إلى المطار. أصرَّ على أن يدعوني على الغداء ورفضت. كان لطيفًا بطريقة مزعجة وشيء ما في داخلي كان يحذِّرني من البقاء طويلًا معه أو مع أي شخص، لأنني سأفقد أعصابي في أية لحظة، وقد أقدم على فعل لا أعرف ما ستكون عواقبه.

كان الصوت القبيح يتسلّل إلى رأسي من بين الأفكار التي كانت تراودني، وكنت أجاهد في إبعاده حتى أعود إلى منطقتي الآمنة. قبل أن نفترق علَّق على الكتب في الكيس الشفاف الذي كنت أحمله قائلًا: لا أقصد التدخُّل في شؤونك، لكن لو تذهب لإحدى مكتبات وسط البلد ستكون الأسعار أفضل وكذلك جودة الطبع. لاحقًا عندما عدت إلى الفندق وقلَّبت الكتب بتمعُّن وجدت أن هنالك صفحات غير مقروءة وصفحات أخرى ملتصقة ببعضها. وودت لو أمكنني العودة إلى البائع المحتال لتأديبه.

لقد كان لزوج عمَّتي مانع، الفضل في أنني أصبحت قارئًا، كانت مكتبته التي تستقرُّ في الصالة زاخرة بكتب التفسير والحديث ومجلدات دواوين الشعر. كان يساعدني في حفظ الآيات والقصائد في المرحلة الابتدائية. وأخذني مرة إلى منزل أحد أصدقائه حيث كان يقيم مجلسًا أدبيًّا كل شهر. كنت أجلس بجواره طيلة الوقت، وأرفض الذهاب للعب مع الصبية في الخارج. فكانت تلك المرة الأولى والأخيرة التي أخذني فيها معه. أو أنه لم يذهب إلى هناك مرة أخرى. لست أدري.

تمشَّيت في الأزقة بعيدًا عن ازدحام الناس وأصوات مزامير السيارات العالية، علا صوت أمعائي حين شممت رائحة الطعام عند عربة الكبدة. يوجد ثلاثة رجال يلتهمون السندويشات المصنوعة بخبز الفينو الصغير، سال لعابي، تقدَّمت من العربة، وطلبت صحنًا، قدّم لي أربع سندويشات وبجانبها قطع مخلَّل وبعض الطحينة. أتيت على الصحن بما فيه واقفًا كما يفعل الجميع. دفعت ثمن الغداء الذي لم أتناول طعامًا بلذَّته منذ وقت طويل ومضيت. مرة حكت لي عمَّتي عن زيارتها لمصر، كان ذلك قبل أن تتزوَّج، ذهبت إلى القاهرة مع والدي هي وأمها عمَّتي الكبيرة، وشقيقها الذي يعيش الآن في البوسنة حيث ابتاع منزلًا في الريف، واستقرَّ فيه بعد تقاعده من العمل. قالت إنها أحبَّت القاهرة، وسكنت مع أسرتها آنذاك في شقَّة مفروشة في جاردن سيتي، أحد الأحياء الراقية في القاهرة. وكانوا يخرجون لتناول الطعام في مطاعم راقية، وكل الأماكن التي أخبرتني بها عن زيارتها تلك مختلفة عن التي زرتُها، كأنها زارت قاهرة أخرى غير التي ذهبت إليها. لهذا حين وصلتُ صدمني

الوضع، وكنتُ قد تخيَّلتُ شكلًا مختلفًا للمدينة التي وصفتها. ثم فكَّرتُ في أنه تقصير وجهل مني، فأنا الذي لم أقرأ كفاية لكتاب مصريين؛ لأعرف عن البلد أكثر، وأتوقَّع شكل مدنه وعاصمته تحديدًا.

على الرغم من أن مرسي كان يردِّد دائمًا أن الحياة هناك صعبة، وأنه لو كان الأمر بيده، لبقي هنا حتى يموت. لكنني اعتقدت بأن الأمر طبيعي كون مرسي من الطبقة الكادحة، ومن المؤكَّد أن حياته ستكون صعبة، وكأنه يعيش هنا حياة سهلة ومرفَّهة. ثم إن المدن - كل المدن - فيها من الاختلاف والتنوُّع ما يثير الدهشة.. حتى هذه المدينة التي وُلِدت فيها وأعيش فيها تجمع بين الأماكن الحديثة الراقية والأماكن القديمة التي يسكنها الفقراء. على كلٍّ تخلَّصت أخيرًا من الشقَّة التي ورثتها عن والدي. منذ بلوغي السن القانوني واستلامي لجميع ممتلكاتي من أموال وعقارات وأنا أفكِّر في التخلُّص منها. لا شيء أعجبني في القاهرة. ولا رغبة لديَّ في العودة إليها مطلقًا. حتى الأكل الذي يقولون إنه من ألذِّ المأكولات العربية لم أستسغه. باستثناء سندويشات الكبدة بالطبع وحتى هذه، أصبت بعدها بتخمة لازمتني باقي اليوم. بقيت أتناول طعامي في غرفة الفندق، وأطلب سلطة أو شوربة أو شطيرة بيض وجبن. المرزوق ذو الاثني عشر إصبعًا حاول أن يأخذني إلى المطاعم الشهيرة في القاهرة لكنني كنت أتهرَّب منه في كل مرة. عدتُ أخيرًا إلى غرفتي وعملي الذي افتقدته خلال أسبوع إجازتي.

ريما

هناك أشياء أسوأ من القتل يمكن أن تفعلها في مَن تحب.

- تشاك بولانيك

أفكِّر في حفصة بعد أن فقدت والدها، لا بدَّ أنها تشعر بوحدة قاتلة، لو كلَّمتني الآن وسألتها ستقول إن الوحدة ليست سيِّئة. حتى في حياة والدها كانت تشعر بالوحدة وتعيشها، كأنها تجهِّز نفسها للأيام التي ستكون فيها وحيدة فعلًا. لقد كبرت حفصة وهي مسؤولة عن بيتهم. لاحقًا احتاجوا للمال فاضطرَّت للانتقال إلى هنا لتعمل في الجامعة. اعتقدتُ بأنني سأرتاح من مسؤولية البيت عندما أنتقل. لكنني ما زلت أدير الأمور من هنا. حتى أدوية والدي، كل يوم أتصل لأتأكَّد من أنه أخذها. لا يفعلون شيئًا دون الرجوع إليَّ. أبتاع مستلزمات البيت، وآخذها معي نهاية الأسبوع حين أعود. أفكِّر في أمي، مسؤولية البيت كلها على رأسها. لكن لا يوجد سواي وخادمتان وسائق ومزارع. حفصة مسؤولة عن والدها وأخيها وعائلته. ذلك الأخ الذي فَقَدَ عمله بعد أن أُصيب في حادث. وصارت هي المعيلة له ولزوجته. راتب والدها التقاعدي لا يكاد يغطِّي رواتب الخادمة والسائق. يحصل أخوها على إعانة من الشؤون الاجتماعية، لكنها لا تكفي متطلبات زوجته وأبنائه. رأسها مشغول بكل هذه الالتزامات والمسؤوليات، لكنها حين تدخل غرفتها لتنام، تتملَّكها وحدة ثقيلة.

- ستتزوَّجين يا حفصة، وسيكون لديك مَن يشيل عنك الحِمل.

- سيكون ملاكًا هذا الذي سيقبل أن يرتبط بواحدة مثلي يا ريما. الرجل يريد واحدة تعينه وتريحه، لا واحدة تثقل عليه بما لديها من هموم والتزامات.

- ما أدراك؟ الله كريم، ستجدين العوض.

- ونِعمَ بالله.

ثم تصمت حفصة. وأصمت أنا، وأتخيَّلها عروسًا سعيدة مع مَن يحبّها وتحبّه، وينجبان أبناء وبناتًا. غير أن موت والدها كسرها بلا شك. كانت تردِّد بأنه إن مات ستضيع. أختها الصغرى تزوَّجت. وخفَّ الحمل عنها قليلًا. ثم زادت مصاريف علاج والدها، وزادت متطلبات الأخ وعائلته. حين أخبرتُ أمي عن وضعها، صارت ترسل مع حفصة مستلزمات البيت كل شهر. وتذكِّرني بأن أختار لها معي جلابيات كلما ذهبنا إلى الخياط. لاحقًا طلبت منها مقاسًا حتى يقوم الخياط بتفصيل الجلابيات على مقاسها بدلًا من الاكتفاء بتطريزها. في البداية كانت حفصة تخجل من الأمر، وتتحرَّج من قبول هداياي. لكنها لاحقًا صارت تتقبَّلها بسعادة وامتنان. أكثر ما كانت حفصة تخشاه هو أن يقوم أخوها ببيع البيت. لديه أرض سكنية، لكنه يقول بأنه غير قادر على بنائها.

بيتنا كبير، وقد لمَّح أكثر من مرة بأن بيعه أفضل. نبيعه وننتقل إلى منزل أصغر، ونحسِّن من وضعنا بالمال الذي سنحصل عليه. والدي رفض اقتراحه ومنعه من التحدُّث بالموضوع مرة أخرى؛ ثم هذا ليس بيتك وحدك. مثلما لك حق، لأختيك حق في البيت. ربما حفصة غائبة بسبب هذا الأمر.

غيابها يقلقني. ليتها تتَّصل بأمي، أو تتَّصل أمي بها وأسمعها وهي تكلِّمها. ليتها تأتي وتمسك بيدي وتكلِّمني. أيعقل أن تكون حفصة يئست من شفائي، أيعقل أنها لن تأتي لزيارتي بعد؟ كل الذين يطول مرضهم ينتهون إلى هذا. يملُّ أهلهم وأصحابهم من زيارتهم. يظنون أن المرضى لا يشعرون، وإن شعروا فهم لا يتجاوبون مع زوَّارهم. فلماذا يخصِّصون الوقت لزيارتهم، ويتكبَّدون عناء الوصول إليهم، والجلوس معهم، وهم أجساد ممدَّدة بلا حراك. إنهم يتنفَّسون صحيح، لكنهم قد لا يستيقظون أبدًا. هل هي منشغلة بحسن؟ هل تراه عاد يكلِّمها؟ حسن ابن جيرانهم الذي كبرت معه، كانت أمه وأمها صديقتين، وقد عوَّل على هذه الصداقة، وتشجَّع ليخطبها من والدها. أمها المرحومة كانت قد ماتت قبل سنوات، حين تكلَّم مع والدها بعد أن أدُّوا صلاة العصر معًا في مسجد الحي، ثار الأب وأسمعه كلامًا قاسيًا لم يكن له داع.

- إعرف حدودك يا حسن، أنت تعرف أنك لست من ثوبنا. حتى مذهبك ليس مذهبنا. كيف تريد مني أن أزوِّجك ابنتي؟ لا تفتح هذا الموضوع معي مرة أخرى.

- عمِّي أرجوك، إننا ننتظر المرسوم، سوف نحصل على الجنسية. وإن كان على المذهب سوف أغيِّره.

نهره والدها وقال: ستظلّ حسن جواد حتى لو حصلت على الجنسية. حطَّمته الجملة الأخيرة واسودَّت الدنيا في عينيه. هل يعني هذا أن حفصة ضاعت من يديه؟ لقد انتظر سنوات طويلة حتى تخرَّج في الجامعة، وحصل على وظيفة في شركة كبرى. المرسوم سيخرج قريبًا، وسيتحسَّن وضعه ويصبح قادرًا على توفير حياة كريمة لحفصة التي بقي عام واحد على تخرُّجها في الجامعة. مرَّت سنوات طويلة، ولم يتزوَّج حسن، ولم تتزوَّج حفصة. لكنها كلما سألتها عما إذا كانت تحبُّه، تقول إنها لا تعرف. لقد مرَّ زمن طويل، ولا شيء بينهما سوى تفضيلات للمواضيع التي ينشرانها على حسابيهما في فيس بوك.

لا يقول شيئًا، لم يحاول من جديد. كانت المرة الأخيرة حين حصلوا على الجنسية، وانتقلوا للعيش في حيٍّ آخر. رفضه والدي من جديد دون أن يخبرني. كلَّمتني شقيقته الكبرى يومها تعاتبني. قلت لها إنني لا شأن لي، والدي لا يسألني عن رأيي في الموضوع، ولو تكلَّمت سيشكُّ بأنني على تواصل مع حسن. وأنا لا أريد مشاكل. والدي أدرى بمصلحتي. قالت جملتها الأخيرة ظنًّا منها بأن حسن سيصرف النظر، ويبحث عن زوجة أخرى. لكنه لم يتزوَّج حتى الآن. بعد أن مرض والدها، عاد له الأمل، أو هكذا اعتقدت حفصة. أرسل لها رسالة على فيس بوك ردًّا على دعاء نشرته لوالدها. ثم بقي يرسل لها الرسائل ويسألها عن حاله. لا يزال حسن كما هو، طيِّب ومحب. لكنِّي لم أعد كما كنت، أبهجني الحديث معه في البداية ثم خَبَت بهجتي، لا وقت لديَّ للحب والغراميات. أنا متعبة ولديَّ من الهموم ما يكفيني. لم تعد كلمات مثل رومانسية وحالمة تصفني. الواقع مرهق يا ريما. وأنا لا أستحقُّ حسن.

شاهين

مَن يتجاوز عشرين دقيقة في حديثه فإنه يثير في السامع غريزة القتل.

فيودور دوستويفسكي -

كان الدكتور محمود نصّار، طبيبًا يتخصَّص في الأعصاب. وزميلًا للطبيب أدريان راين العالم في علم "الجريمة العصبية" الذي يقول: "مهما حاول البشر تصديق أنهم مُخيَّرون في أفعالهم فهم يصدِّقون أوهامهم، لأن الجسد البشري أسير كل ما ورثه من جينات، وأسير حدود وظائف دماغه". ولعلَّ هذه الجملة كانت أكثر جملة منطقية سمعتها منذ التحقت بالمعهد. برغم الخيارات المتاحة في الحياة، التي نظنُّها متاحة، فالاختيار وصنع اختيار صائب ما هو إلا رهن للمصادفة والحظ. أحيانًا هنالك خيارات واضحة وعواقبها معروفة لكن حدود دماغ المرء تمنعه من اتخاذ القرار الصحيح بديهيًّا. ثم إن هنالك أفكارًا تحاصر عقل المرء، وتلحُّ عليه، لا يمكنه تجاهلها أو إسكاتها. لن تسكت في الأساس إلا بعد اقتراف الفعل الذي يعطلها.

يتحدَّث أدريان راين عن الجدلية الخاصة بالصراع بين التنشئة والطبيعة، أو الفطرة التي يولد عليها المرء والتي يتَّفق الجميع على كونها سليمة؛ إلا أن الأهم من الصراع الجدلي بين التنشئة والفطرة التركيبة المعقَّدة التي تظهر في الإنسان نتيجة تفاعل البيئة المحيطة به مع بيولوجية دماغه. عرض بعدها الدكتور نصار صورًا تدعم نظرية راين، تظهر نتائج الأشعة المقطعية لمجرمين وقتلة، بَدَت مختلفة عن أشعة الدماغ للناس العاديين أو الأسوياء كما يصفهم. شعرت بالإثارة وتمنَّيت لو أكون في فريق المتطوِّعين الذين يدرس راين أدمغتهم ويشخِّص حالاتهم والأسباب التي أدَّت بهم إلى عدم القدرة على مقاومة الرغبة في القتل والتخلُّص من الأصوات التي تدفعهم للقتل بدم بارد.

ولم يمرّ وقت طويل حتى ساورني الملل من المحاضرة الوحيدة التي كنت أجد فيها المتعة، وغيَّرت نظرتي نحو الدكتور نصار، فانتقل من منزلة القدوة الفذَّة إلى الناس العاديين، بل الذين أشعر نحوهم بالاشمئزاز، وأرغب بتخليص العالم منهم. كنت أجلس في الزاوية المظلّلة قرب مواقف السيارات، وصادف وجودي هناك مرور الدكتور نصّار، وسمعته يتحدَّث على الهاتف إلى شخص لا بدَّ وأنه قريب منه. كان يصرخ منفعلًا وسمعت الكلام الذي قاله بكل وضوح:

"لا تَقلْ إنك لا تملك شيئًا وإن حياتك فارغة، حياتك مملوءة لكنك لا ترى منها غير الفراغ، دَعِ الحديث عن الفراغ لي وللكثيرين مثلي الذين فشلوا في كل العلاقات التي يمكن للمرء أن ينشئها. أنا يتيم الأبوين، ولا أصدقاء لي ولا زوجة، وعلاوة على ذلك فأنا عقيم. أنت لديك عائلة، والداك على قيد الحياة وتزعم أنك تحبّهما، لك إخوة وأخوات ولك زوجة تقول إنها طيِّبة وأبناء، ثلاثة أبناء صبية. فلا تحدِّثني عن الشعور بالوحدة والفراغ بربك". أغلق الهاتف وركب سيارته، بقي فيها لثوانٍ يلملم نفسه، وأظنني لمحته، وهو يمسح دمعة سالت على خدِّه. كل ذلك الحضور، وتلك الكاريزما التي يظهر بها أمامنا اختفيا في بضع دقائق. الشهادات التي يعلِّقها على جدار مكتبه، والصداقات التي يتغنَّى بها مع العباقرة وعلماء النفس والجريمة لم تفلح في سدِّ الثغور التي تملؤه.

ألم يخشى أن يسمع أحدهم الكلام الذي قاله عن نفسه، وهو يقف في مكان مكشوف في ذلك الوقت من اليوم؟ وجلوسه بتلك الطريقة وكمّ الانكسار الذي كان باديًا على هيئته. لقد اقترف خطأً كبيرًا حين فضح نفسه، ولم يتمالك مشاعره، وتفوَّه بتلك الاعترافات على الهاتف. بقي الدكتور نصار والمكالمة التي أجراها والصورة الواهنة التي كرهت رؤيته عليها عالقة في رأسي، أحمله معي كفكرة وحيدة، أغمض عينيَّ وأرى وجهه، وتعاد لقطة مسحه للدمعة التي سالت على خدِّه بحركة بطيئة كشريط سينمائي مكرور. لم أتمكَّن من النوم مفكِّرًا في طريقة أنهي فيها حياته البائسة التي فضحتها تلك المكالمة. وتذكَّرت المرات التي نصحنا فيها بالتمسُّك بتحقيق طموحاتنا

وتحقيق ذواتنا بالتفوُّق العلمي على ألّا ننسى واجباتنا نحو أسرنا ووالدينا وأبنائنا بعد أن نصبح آباء.

كله كلام منمَّق ومثالي، يشبه فيه الكثير من مدرِّبي التنمية البشرية الذين يتغنُّون بالإيجابية وجمال الحياة وأهمية الاعتزاز بالنفس وتقدير الذات وتوكيدها، وهم في الحقيقة أكثر الناس سلبية وإحباطًا. يكفي موقف واحد، لينكشفوا، ويسقط قناع القوّة والثبات. أكثرهم مطلَّقون ومطلَّقات ويتحدَّثون عن أسرار الزواج الناجح. يقدِّمون نصائح في تربية الأبناء وهم أكثر الناس فشلًا في احتواء أبنائهم. لديهم مشاكل عائلية قديمة وعُقد نفسية متراكمة منذ الطفولة. يسيئون التعامل مع الأبسط منهم، ويمجِّدون كل مَن هو أعلى منهم. هؤلاء أرغب لو أتخلَّص منهم بكبسة زر واحدة وأمحوهم من الوجود.

صحوت على جدال بين مراهقين تركا كل الأماكن واستقرَّا قرب نافذة غرفتي ليتحدَّثا. كان هنالك خلاف حول فكرة سخيفة وحوار أكثر سخفًا يدور بينهما. وكثيرًا ما أفكِّر حين أسمع أحاديث الآخرين بأن آراءهم غاية في السخف، لكنني أعجب بقدرتهم على طرح أفكارهم والمجاهرة بها رغم سذاجتها واحتمالها نسبة كبيرة من الخطأ. ولهذا كنت، وما زلت أوثر الصمت على الحديث والمشاركة برأي أخشى أن يجده أحدهم سخيفًا، هذا ما أعتقده في الغالب، لأنني أسخِّف الأفكار التي أسمعها، وأخشى على نفسي وأفكاري من التسخيف.

المرحوم دكتور نصّار، كان يستمع إلى مداخلات الطلاب في المحاضرات بإنصات ملحوظ، ولا أذكر أنني شعرت بأنه كان يتظاهر بالاهتمام، لكنها كانت طبيعته التي أعجبت بها مثل صفات أخرى كنت أُعجب بها فيه، قبل أن يسقط من عينيَّ تلك السقطة الموجعة والتي كلَّفته حياته. وأظنُّه من المفترض أن يكون المعلِّم من أمثاله وفي مركزه ذا شخصية تحفِّز على التعبير عن الآراء، وتحترم الاختلاف في الأفكار الشخصية، وتحثُّ على المشاركة بها مهما كانت بسيطة أو غير ذات معنى. أما أنا فلم يكن ولن يكون ما يدفعني ويجبرني على احتمال السخف الذي يبدر من الناس، حين يعبِّرون

عما يدور في خلدهم، وخاصة وإن كان هؤلاء الناس صِبية بُلَهاء يمارسون مراهقتهم قرب نافذتي في هذا الوقت من النهار.

فتحت النافذة وحدجت الصبيين بنظرة أخرستهما، وجعلتهما يمضيان إلى مكان بعيد عن نافذتي. قضيت الوقت المتبقِّي من النهار في الاستماع إلى الراديو بعد أن سخَّنت تونة معلَّبة، وأضفت إليها عصرة ليمون، وتناولتها مع وريقات من الجرجير والخبز. أشعلت النار تحت إبريق الشاي وتركته يغلي حتى أصبح ثقيلًا. أشعلت سيجارة ونفثت دخانها في الفضاء. كانت الشمس تندسُّ في مخدعها، وأنا أراقب آخر خيط من الضوء وهو يتبعها، تصبح السماء بنفسجية، ثم تزرق وتصبح داكنة شيئًا فشيئًا، حتى يغطِّيها السواد.

تذكَّرت مرسي وهو في جلابيته الفضفاضة يمصمص أصابعه بعد أن أتى على صحن الفول وتناول بصلتين وثلاثة أرغفة من الخبز. صوته وهو يخبرني عن الرجل الذي كان سيفطسه. إنتَ عارف؟ أنا صلَّيت ركعتين شكر لربنا. ده أنا اتكتب لي عمر جديد. ابتسمت ورغبت لو أتمّ ما بدأته بالأمس، وتركته من دون أن أكمِّله. لم أكن أعرف أن مرسي لديه أطفال، وأنهم يبيتون معه في الإجازات. زوجته تسكن مع أختها، وهو بسبب عمله يلزم أن يتواجد، وينام في المزرعة التي يعمل حارسًا على البيت فيها. خلته وحيدًا لكثرة شكواه، وأظنني لم أسمعه جيدًا أو أن الأمر التبس عليَّ حين كان يحكي ويقول إنه غير قادر على ترك هذه الوظيفة والبقاء قرب زوجته وأبنائه.

كنت راغبًا في تخليصه من الوجع الذي يقول إنه ينتابه، حين يرى أبناء السيد حوله، يدخلون ويخرجون بصحبته. عارف؟ أنا لما بشوفهم بحسّ إني عاوز أحضن فيهم وأبوسهم لكن البيه مش هيعجبه إني ألمس ولاده. ولا هما هيقربوا مني. أنا ولادي وحشوني خالص يا سي شاهين. وكنت كثيرًا ما أفكِّر في أنه يبالغ في وصف أشواقه نحو أبنائه. وما هذه الرغبة في احتضان وتقبيل أبناء الآخرين؟ ولوهلة فكَّرت في أن مرسي متحرِّش بالأطفال، وأنه يقول هذا الكلام متظاهرًا بحبِّه للأطفال. ثم أتذكَّر عمَّتي عالية وسوء الظن الذي كان يغلب على كل أحاديثها وقصصها، فهي كانت تتوجَّس من الجميع وتحذِّرني من

الجميع. بالأخص من الرجال الذين يعاملون الأولاد بلطف. مرسي جلب ولديه عندما تأكَّد من سفر مالك المزرعة، وجعلهما يقضيان الليل معه كما وعدهما.

اقتله، يجب أن يموت، الأفضل لو يموت، سترتاح من شكواه وستريحه. لكن مرسي رغم أنه مزعج كبير، لكنني أظنُّ أحيانًا بأنني أصبحت قادرًا على الانفصال عن العالم حين يتحدَّث، يصبح كلامه وشكواه مثل أغنية مكرَّرة أسمعها يوميًّا، ولا تعود تؤثِّر بي، لا كلماتها ولا لحنها. حتى إنني أستطيع بكل سهولة التفكير في أي أمر والذهاب إلى مكان آخر وأنا معه. أبله، اقتله، أرح العالم منه، ماذا يعني أنك اعتدت عليه، كُنْ رجلًا واقتله. تسلَّلت إلى المزرعة وأنا أضع اللثام على وجهي، أحدث الباب صريرًا جعل مرسي ينتبه إلى الصوت ويشعل النور في المدخل. لم أجفل وتقدَّمت بضع خطوات، وأنا عازم على إنهاء الأمر. تقدَّم نحوي وتناول قطعة خشبية يريد ضربي بها. أمسكت بعنقه وضغطت عليه. من النافذة رأيت أحد أبنائه يراقبنا جالسًا على فراشه وهو مشدوه. شعرت بالضعف يسري في ذراعي ودفعت مرسي الذي صار يسعل ويشتم وركضت تاركًا المكان.

تخيَّلت ما سيحلُّ به، لو أنني أعترف له الآن، وهو متخم بالفول والبصل بأنني أنا الذي حاولت قتله، وإنهاء معاناته أو ميوله المنحرفة كما صوَّرت لي شكوكي. وتذكَّرت القصيدة التي كتبها ريتشارد هيوجو لتشارلز سيميك بعد أن اكتشف الأخير أن الأول كان قد قصف مدينته حين كان الثاني طفلًا، واندهش كيف اعتذر الشاعر منه مرارًا، وشرح له موقفه وأسبابه على الرغم أن لا شيء يبرِّر الحرب وقتل الأبرياء. وضعت خطًّا بقلم حبر تحت هذا الشطر من القصيدة: "التاريخ لديه طريقة في جعل الماضي مقبولًا، لجعل الموتى وهمًا". وهذا صحيح جدًّا، فلطالما نظرت إلى الناس الذين خلَّصتهم من الحياة وخلَّصتها منهم على أنهم ليسوا أكثر من وهم. كانوا وهمًا من أوهام الحياة، وتبدَّدوا راقدين في قبورهم.

ريما

إنه أمر سيِّئ، أن تقتل الناس لأنك لا تحبُّ أفكارهم.

- سلمان رشدي

إنه الأول من رمضان، هابي رامادان قالت الممرِّضة لأمي لحظة دخولها إلى الغرفة، وقالت الشيء نفسه لي مضيفة اسمي، وهي تمسح على كفِّ يدي. شكرتها أمي، وتخيَّلتها تدسُّ في جيب الممرِّضة مبلغًا من المال، صدقة تطلب من الله بها أن يشفيني. قالت الممرِّضة: ثانكيو مام، وبدا من صوتها أنها مبتهجة ثم تركتنا. أمي لا تحبُّ الخروج كثيرًا في رمضان، وهذا العام ستقضي الشهر كله في المستشفى بسببي. أحبُّ كل شيء في رمضان، النهار الطويل صيفًا والقصير جدًّا والخفيف شتاءً. وقت الإفطار بصحبتها، وقبله إصرارها على طهو كل شيء، أقول لها إننا وحدنا وأكلنا قليل، ما الحاجة لكل هذه الأطباق. تردُّ بأنه الشهر الوحيد الذي تدخل فيه المطبخ، وتجرِّب إعداد أكلات مختلفة. ثم إن لا شيء يرمى، سنتشاركه مع جيراننا. تصنع الهريس والثريد والفطائر والسمبوسة، وتجرِّب وصفات جديدة، فتصنع صينية بطاطس بكرات اللحم وشطائر الدجاج والزعتر وحلويات شرقية وغربية مختلفة. ترسل منها إلى جاراتنا، وتترك لنا كميات قليلة نتناولها على الإفطار والسحور، وتأكل منها الخادمات. تعدُّ أمي كل شيء في النهار ثم تتفرَّغ للعبادات ليلًا. وكل جمعة من جمع رمضان تطهو أرزًا باللحم في قِدَر كبيرة، وتوزِّعه على العمّال في الخارج، وترسل منه إلى الخيمة الرمضانية قرب المسجد الكبير في حيِّنا. أقترح عليها أن تتعامل مع مطعم ليوزِّع الوجبات، أو يجلبها إلى المنزل، وتقوم هي بتوزيعها حسب معرفتها. تردُّ بأنها تفعل هذا صدقة عن روح والدي، فليأكل الناس طعامًا مطهوًّا في بيته، وبيد زوجته ومن ماله. ماذا ستفعل تراها في

جُمع رمضان هذا العام؟ وأنا راقدة هنا، أعيقها عن القيام بالأعمال التي اعتادت أن تقوم بها. كنت قد عاهدت نفسي على ألَّا أتعبها وأن أريحها حتى من الأخبار التي ستضايقها، فأخفي عنها الكثير من الأشياء. لا أخبرها عن وفاة والد صديقتي، ولا أجد فائدة من إعلامها عن مرض قريبة من قريبات بنت أعرفها وتعرفها. أعرف أنها ستدعو لها، وقد تتصدَّق عنها. لكن أمي تحمل هموم الناس معها، وستظلُّ تسألني عنها مرارًا، وتحثُّني على الاتصال والسؤال عن حالها. ثم ستفكِّر وتدخل في وسوسات لا نهاية لها، وتتخيَّل لو حدث هذا الأمر معها أو معي، وكيف ستتعب الأخرى، وتضطرُّ لتحمُّل كل الظروف المصاحبة للعرض الذي رسمت سيناريو لها في عقلها.

وأظنُّ ما حدث لي وكل هذا الذي نعيشه الآن أنا وأمي، ليس سوى نتاج ما فكَّرت به أمي مرارًا وخافت منه. ألسنا نجذب ما نخشاه؟ سأبدو أنانية حين أقول إنني ممتنَّة؛ لأنني أنا التي تعرَّضت للحادث، وأرقد على هذا السرير. لأنني لو حدث شيء لأمي، ما كنت لأقوى على أن أستمرَّ في الحياة بتماسك وقوة كما تفعل هي. أعرف أنها محطَّمة ومتصدِّعة من داخلها، لكنها تظهر أمام الناس ثابتة. أمي قوية وأنا لست بقوتها. دائمًا كنت أستمدُّ قوتي وثباتي منها. أشحن طاقتي من حضنها، وحين تغيب - وقلّما يحدث هذا - أشعر بأنني تائهة، وبأن الحياة لا طعم لها ولا لون في غيابها. وهي مثلي، لا تقوى على فراقي، ولا تستطيع صبرًا إن غبت طويلًا. ولهذا السبب هي هنا ملتصقة بي، لا تبرح الغرفة، ولو أمكنها لقضت الليل معي، وانتقلت للعيش في المستشفى حتى أصحو من غيبوبتي أو أسلم روحي.

شيء واحد يوتِّرني في رمضان، وهو الألعاب النارية التي يطلقها عزيّز ابن جارتنا عشبة. أمه تقول إنها كل مساء تضع يدها على قلبها خوفًا من أن يؤذي أحدًا، أو يؤذي نفسه. يبتاع الألعاب النارية من صديق له، يدخلها بطريقة غير قانونية ويبقى يطلقها طيلة أيام الشهر، حتى أول أيام العيد أو حتى تنفد الكمية. ولم تنفد الكمية يومًا، بل إنه كان يستمرُّ في إطلاق الألعاب حتى بعد رمضان والعيد، ويصرُّ على أن يجعلنا متوتِّرين جميعًا وخائفين من أن يحدث شيء لا تحمد عقباه، ولم يوقفه الحادث الذي حدث في أحد منازل الجيران

حين طار الصاروخ وعاد ليهبط في حوش البيت الأمامي، وينفجر في سيارة الابن، وهو في طريقه للخروج من البيت. تشوَّه وجه الابن، وكاد يفقد بصره. وكلما ذكَّرته أمه يقول إنه حادث مثل أي حادث، ولو كان قد قدّر له الموت، سيموت، بانفجار الألعاب النارية في وجهه أو بحادث مروري أو حتى بسكتة قلبية وهو نائم. فتصمت الأم، وهي تحاول إخراج صور الموت التي عدَّدها عليها من رأسها، فتدعو له بالهداية، ولجميع الذين حوله بالحفظ. مرة لمّحتْ عشبة بأنها تريد أن تخطبني لابنها عزيّز، كنت وقتها قد التحقت لتوِّي بالجامعة. وعزيّز الذي يعمل في العاصمة، وجدته أمه لائقًا بي، كوننا نقصد المدينة نفسها كل صباح. عنده بيت هناك، بيت كبير، بدال ما البنت كل يوم تروح وترد، يتمون هناك، ويردون في نهاية الأسبوع. ما أحب السيرة والردة. الشوارع كم خذت من عيالنا يا أم ريما. بعدين أنا خايفة يأخذ له وحدة من هالبنات اللي محد يعرف أصلهن. ضحكت أمي وقالت إنني صغيرة والزواج الآن ليس مناسبًا. بعد أن أتخرَّج يصير خير. لم يعجبها الردّ طبعًا، وقاطعت أمي لأسابيع، لكنها عادت لاحقًا لتكلِّمها، وكأن شيئًا لم يكن. خطبت له ابنة أخيها، مع هذا لم تسكن معه في البيت الكبير في العاصمة إلا لأشهر قليلة، بعد أن حملت عادت تسكن مع خالتها في البيت. وعزيّز يبقى في بيت العاصمة وأحيانًا يسير ويرد. وفي رمضان يأخذ إجازة سنوية ليضمن عدم تفويت يوم واحد من أيام احتفالاته بالشهر الفضيل وإطلاق الألعاب النارية التي يرعب بها الناس. زوجته تسانده كل مساء، وتقف قربه هي وولدهم الصغير، وتوثِّق لحظات إطلاق الألعاب وتنشرها في حساباتها في مواقع التواصل.

أسمع أمي وهي تقيم صلواتها، ركبتاها وهما تطرقعان كلما رفعت من السجود. وورثت أنا منها تلك الطرقعة. وقفتها الطويلة، وهي تصلِّي الوتر. كانت تصلِّيها متأخِّرة، في صلاة القيام. لكنها بعد الحادثة، وهي تقضي أيامها معي، صارت تلحقها بصلاة العشاء، وفي رمضان بعد التراويح. تصلِّي أمي عشر ركعات، أسمعها وهي تشفط إفرازات أنفها. تطيل الوقوف، تدعو لي، من قلبها كما تفعل دومًا. أنت فرحة عمري وعوضي، أنت كل ما تبقَّى لي في هذه الدنيا يا ريما. لا أعرف لماذا كانت تكرِّر هذه الكلمات. وكل مرة كنت

أرتمي على صدرها ونبكي معًا. كأن شيئًا ما كان يخبرها أن حالنا سيتغيَّر قريبًا، وأن العين التي لطالما حصَّنتني منها، ستصيبني يومًا.

يطلق أحد الأجهزة طنينًا عاليًا. أسمع أمي تسلِّم، وتقترب مني، أكاد أسمع دقّات قلبها، تضع يدها على صدري ثم عنقي. تتأكَّد من أنني ما زلت حيَّة. تدخل ممرِّضة أخرى، تلك التي جاءت في الصباح انتهت دوريتها. تحاول إسكات الجهاز لكنه لا يصمت. تتأكَّد من وضعي، تمسك بيدي ترفع ذراعي. ثم تخرج، الطنين لا يُطاق. أمي تقف على رأسي، ثم أسمع صوتًا رجوليًّا. يلقي التحيَّة ويضغط على أزرار تحدث صوتًا حين يتمُّ الضغط عليها. يسكت الطنين. أحاول تذكُّر الصوت، إنه الرجل نفسه، الذي أصلح الجهاز في المرة السابقة، وسألته أمي عن اسمه. ما المشكلة؟ تبادر أمي بقلق. يقول إن أحد الأنابيب غير مثبَّت بطريقة صحيحة. وهذا يحدث كثيرًا، ربما حرَّكته إحدى الممرِّضات وقت تبديل ملاءات السرير. تتمتم أمي: الحمد لله. ثم تبتعد عني، وأسمع خشخشة كأنها تخرج شيئًا من حقيبتها. وتنادي: شاهين انتظر. يسألها: ما هذا؟ تقول أمي: أرجوك لا تردّني.

- لست في حاجة شيء يا سيدة.

- إذن أعطِه أحدًا محتاجًا. أنت ترى حالنا، لا أستطيع الخروج، أرجوك وزِّعه بمعرفتك، لا تردّني عاد.

يلين الرجل مع إلحاح أمي ويأخذ ما أعطته، ويخرج من الغرفة. تتمتم: يزاك الله خير ثم تعود إلى كرسيها متهالكة ويحيط الصمت بالمكان.

شاهين

نحن نعرف عن الحرب أكثر مما نعرف عن السلام، وعن القتل أكثر مما نعرف عن الحياة.

- عمر ن. برادلي

ما زلت غير قادر على استيعاب الشيء الذي حدث منذ قليل. كيف طاوعتها وأخذت منها الظرف. دخلت إلى الحمام وأخرجته من جيبي، بداخله ألفا درهم. تفوح من الظرف رائحة عطر مألوفة. هي رائحة الغرفة 106 التي تنام فيها المريضة، لا بدَّ أن الأم ترشُّ كل أشيائها بهذا العطر. كيف سأوزِّع المال؟ وعلى مَن؟ أدركتني الحيرة، ليس لأني لا أعرف محتاجين، فالحي الذي أسكن فيه يغصُّ بهم، بل لأنني لست معتادًا على إعطاء المال لأحد. ولا أرغب بأن أفتح على نفسي بابًا، فهؤلاء سيزعجونني لاحقًا، ويطلبون أن أوصل حاجاتهم للسيدة المحسنة، وقد يطلبون رقم هاتفها، ليزعجوها بأنفسهم. لم يكن يجدر بي أخذ الظرف منها. سمعت صوتًا في الحمام المجاور وأعدت الظرف إلى جيبي، وضغطت على زر المرحاض وخرجت. سأفكِّر في طريقة أوزِّع بها المال لاحقًا. شيء في تلك السيدة يذكِّرني بعمَّتي. وربما لهذا السبب أشعر بأنني مجبر على التعامل معها بلين وطواعية. ثم إنها كانت حتى اليوم سيدة غير مؤذية، بل إنني كنت أستلطفها، فهي غير مزعجة ولا فضولية، كما أنها لا تتصنَّع الحنان أو الاهتمام مثل أخريات كُثُر في عمرها. همّها ابنتها المريضة. وحتى هذه لا تبدي نحوها أية مشاعر في وجودي على الأقل. لكن تصرُّفاتها وردود أفعالها تفضحها كلما حدث عطل في جهاز ما، وجئت لتفقّده، عندئذ يظهر تعلُّقها بتلك الابنة. أتصوَّر أنها وحيدتها، وليس لديها من الأبناء سواها.

عدتّ إلى البيت متأخرًا، مررت بالبنك لتحديث بياناتي. الفرع الذي في المركز التجاري قرب المستشفى يبقى مفتوحًا حتى الليل. الموظف الذي حدث بياناتي يقول إنه قريب لي. أمه ابنة عم والدي. قال هذا مستندًا على اسمي في الأوراق الرسمية. دعاني لزيارتهم في البيت، وقال إن أمه ستسرُّ برؤيتي. قلت إنني سأحاول تلبية دعوته، لكن لا أعده بشيء، فساعات عملي طويلة ولا وقت لديَّ في الغالب. ولا أعرف لماذا كذبت عليه، وقلت إنني أحضر فصولًا دراسية نهاية الأسبوع، لهذا أكون غير متفرِّغٍ كل الوقت. سألني عن عنواني، وقال إنه سيأتي لزيارتي، استأت من إلحاحه، وقلت بكل وقاحة: إنني لا أستقبل زوَّارًا، ولا وقت لديَّ لزيارات ولقاءات. تركته ومضيت. لا أعرف من أين خرج هذا القريب الآن. ساعة واحدة ويحين موعد الإفطار. لديَّ في الثلَّاجة طعام منذ الأمس، سأسخِّنه لاحقًا. حاولت البقاء متيقِّظًا حتى موعد الأذان. رشفت بضع رشفات من الماء، وتناولت ثلاث تمرات، وارتميت على السرير.

تنبَّهت بعد ثلاث ساعات. كانوا يصلُّون التراويح في المسجد القريب. ولا أعرف لماذا حلمت بمرسي حلمًا عاديًّا لا أذكر تفاصيله، لكن وجه مرسي بقي عالقًا في رأسي. بعد أن أنهيت طعامي خرجت أتمشَّى إلى بقالة زمان. ابتعت سجائر، وطلبت من صاحبها أن يفكَّ لي الألفي درهم إلى مئات، ليسهِّل عليَّ توزيعها. قادتني قدماي إلى مرسي. كان يصلِّي أمام مسكنه، سلَّم ودعاني بحركة من يده. سألته عن أحواله، فعاد لشكواه والحديث عن شعوره بالوحدة والاشتياق إلى أولاده. لماذا لا تجلبهم سألته. قال إن لديهم مدرسة، ويخشى أن تتأثَّر علاماتهم. بقيت صامتًا أغلب الوقت أستمع إليه وهو يتكلَّم كأنه كان محرومًا من الكلام لأشهر. كنت قد عزلت مبلغًا من المال، وطويته في محرمة ورقية. دسسته تحت إحدى الوسائد، حيث كنت أجلس واستأذنته ومضيت. يعرف أنني لن أبقى حتى لو أصرَّ. شكرني على زيارتي وعاد لسجادته.

عادت أم حمزة للصراخ من جديد، تختار أكثر الأوقات هدوءًا لتبدأ بكيل الشتائم وإطلاق الدعوات على حمزة وإخوته. يجلس حمزة على الدكَّة الأمامية، محدِّقا في الكرسي الذي جرَّه قبل أيام من قرب القمامة، ووضعه

أمام البيت، وكان جارهم قد تركه هناك بعد أن ابتاع كرسيًّا جديدًا. أظنُّها نوبات جنون تُصاب بها أم حمزة بين حين وآخر. لأنها أغلب الوقت تكون هادئة، ولا يسمع لها صوت. يعلو صياح الصغار، وتتوالى الشتائم. لا أحد يردُّ عليها ولا أحد يطلب منها أن تسكت. أُعيد أنا ترتيب المكتبة، أحرِّك الكتب، وأصفُّها هذه المرة حسب لون الغلاف، أصنع تدرُّجات من الألوان. أنفصل عن العالم، عن خلفية شتائم أم حمزة، وصوت طرقات العمّال في الملحق الذي يبنونه في مزرعة تبعد مسافة كيلومتر والذي تسافر به الريح وتوصله إليَّ.

أشعر بالجوع، كان إفطاري قليلًا بالأمس وعلى السحور اكتفيت بالبسكويت الذي وزَّعوه علينا بمناسبة يوم الطبيب. كانت عمَّتي تملك علبة بسكويت تضع فيها أدوات الخياطة التي تصلح بها أثوابها وأثوابنا أنا وزوجها. وكنت أنخدع وأنا طفل بتلك العلبة وأشعر بخيبة أمل كلما فتحتها أمامي، ظنًّا مني بأنها ستعطيني شيئًا منها. ثم فهمت القصة وعرفت أنها ستشرع بالخياطة، ولم تعد علب البسكويت تشدُّني حتى لو كانت تحتوي بسكويتًا. كنت أتعجَّب من كونها تصلح الأثواب التي تجلبها من الخياط والتي يغلب الأخضر على ألوانها. فتقوم بفتقها من الجوانب، وإعادة خياطتها زاعمة بأن الخياط لا يخيط ثيابها جيدًا. كانت تقوم بتفصيل الكثير من الملابس على الرغم من قلَّة خروجها وندرة زوَّارها. تعيد خياطتها وتطلب من الخادمة أن تغسلها باليد، ثم تنشرها في الشمس، وتكويها وتعطِّرها بزيت الفل، وتبخِّرها من المعمول الذي تقوم بصنعه بنفسها، وتصفُّها في الخزانة. ثم تلبسها واحدة تلو الأخرى وتعيد ارتداءها مرات معدودة، ثم تقوم بالتخلُّص منها وإعطائها لأم جميل قارئة الفنجان.

التقيت بأم جميل ثلاث مرات، مرة عندما كنت في الخامسة عشرة وبعدها بسبع سنوات التقيتها مرّتين في اليوم نفسه، وكان ذلك آخر يوم في حياتها. كانت تزور عمَّتي عالية وتجلب معها قهوتها وركوتها وفناجينها، تدخل إلى المطبخ، وتعدُّ القهوة في الركوة التي لم تكن متوفِّرة في مطبخنا، تصبُّها في فناجين مختلفة عن التي نشرب فيها القهوة، ثم ترشفها مع عمَّتي، وهنَّ جالسات في الصالة ولاحقًا تقرأ لها الفنجان. تعاملني عمَّتي ببرود كلما جاءت

هذه السيدة إلى بيتنا، وكانت وكأنها تراقبني وتترصَّد أفعالي. لكنها وبطبيعتها من السذاجة ما يجعلها تخبرني بما دار بينها وبين أم جميل، وتحكي لي عن كل الأمور التي قرأتها في فنجانها. أخبرتها مرة أنني ولد شقيّ، وإنني سأظلُّ شقيًّا وأموت شقيًّا. عمَّتي صحَّحت لها بأنني لست بشقيّ ولا أسبِّب المشاكل، ضحكت أم جميل بخبث، وقالت لها إنها لا تعرف عن الأشياء التي أقوم بها خارج البيت. سألتها مرة: لماذا تصدِّق ما تخبرها به هذه الكاذبة. وكيف لها أن تعرف أصلًا؟ فأجابت بأنها تتسلَّى معها، وأنها لا تصدِّقها، لكنها تخبرني لتختبرني. حين التقيت بها وأنا في الخامسة عشرة، جفلت مني، بَدَت وكأنها منكشفة أمام محقِّق يعرف كل جرائمها. سقط من يدها الكيس الأسود الذي تضع فيه عدَّة القهوة، وغادرت سريعًا. عمَّتي أيضًا بَدَت مرتبكة.

كان قد مرَّ على حادثة الصبي في المدرسة بضعة أيام. سألتني عمَّتي إن كنت أعرف الولد الذي مات في مدرستي واسمه حسان. قلت بهدوء بأنه كان في صفِّي. استغربت من أنني لم أخبرها، واستغربت أنا استغرابها الأمر، لأنني كنت بالكاد أخبرها عما يحدث في المدرسة. لاحقًا عندما جلسنا وحدنا، وبدأت تخبرني عن زيارة أم جميل. قالت إنها كرَّرت إنني ولد شقيّ، وإنني أفعل أمورًا قد تضعني في مشاكل. تساءلت كيف تعرف هي هذه الأشياء؟ ومن أين تأتيها الأخبار؟ لاحقًا عرفت بأن لها ولدًا في عمري ويذهب إلى المدرسة نفسها. استبعدت أن يكون قد رأى شيئًا ذلك اليوم، لكن لا بدَّ وأنها تعرف ما تعرفه عني وعن شخصيّتي من ولدها الأحمق ذاك.

وكنت أتساءل عن موقف زوج عمَّتي مانع من استقبال عمَّتي لأم جميل في البيت، فهو رجل متديِّن كما يظهر عليه، لكنه وبطبيعته لا يتدخَّل في شؤون الآخرين وبالأخص عمَّتي. أنا الولد الذي أعيش في كنفه، لم ينتقدني يومًا ولم يجبرني على الصلاة رغم أنه يلاحظ عدم التزامي بها. هو الذي يؤدِّي صلواته كلها في المسجد. وهذا أمر يروقني فيه، لكنه في أوقات أخرى يجعلني ألومه على ما آل إليه حالي. فربما لو كان مارس معي دور الأب الحقيقي، واتخذني ولدًا وتنبَّه إلى السلوك الذي كنت أسلكه والعنف الذي كنت أمارسه على الحيوانات ما كنت لأقترف ما اقترفت. ستظنُّون إنني نادم، وأنني أُلقي باللوم

عليه وعلى عمَّتي عالية أو على الشمطاء المجنونة. لست كذلك، كل ما في الأمر أنني أنظر نحو احتمالات أخرى كان ممكن أن تحدث لو اختلفت الظروف المحيطة بي.

استمرَّت أم جميل في زيارة عمَّتي لسنوات، وكانت آخر مرة جاءت فيها إلى بيتنا حين قرأت فنجان عمَّتي وأخبرتها بأنها رأت ثعبانًا في يدي، تركته يلدغ كل الناس الذين أعرفهم ومنهم عمَّتي وزوجها. تجادلت عمَّتي معها واتَّهمتها بأنها لا تحبّني وتريد أن تفسد علاقة أم بابنها. طردتها من المنزل بعد أن أعطتها المئة درهم نظير القهوة والقراءة في الفنجان. وحرمتها من المئة الأخرى التي تهبها لها كل مرة زيادة على سعرها المحدَّد. اختفت بعدها أم جميل من حياتنا. وحين رأيتها بعد سبع سنوات، كانت بائسة ومثيرة للشفقة، نظرت إليَّ بعينين مشدوهتين. بَدَت لي كالمعتوهة، ثم ابتسمت ببلاهة وقالت: كيفك يا شاهين وكيفها عالية؟ بدّك أقرأ لك الفنجان؟

تجاهلتها ودخلت إلى بقالة زمان، لكنني بقيت أنظر نحوها، وهي تتخبَّط في حيرتها تحت الشمس الحارقة. تفجَّرت في داخلي مشاعر من الحنق والاستياء، وشعرت بأنني يجب أن أنهي عملًا كان يجب أن أنهيه قبل سنوات طويلة. ابتعدت وهي تسير بخطوات غير متَّزنة فتبعتها وعرفت أين تقطن. كان منزلها قريبًا من الحي الذي أسكن فيه. على بعد ثلاثة شوارع. وكنت قد قرَّرت الطريقة التي ستموت بها أم جميل في ذلك البيت السهل اختراقه.

عرفت أن ابنها جميل سرق كل المال الذي جمعته من النساء اللاتي كانت تزورهنَّ وتقرأ لهنَّ الفنجان، وتفسد علاقاتهنَّ بالناس الذين يعرفنهنَّ وتهدم في بعض الأحيان بيوتهنَّ. سرق جميل المال واختفى. جميل الذي كانت تحلف برأسه، لتؤكِّد على صحّة ما تراه في الفناجين. ولدها الذي في عمري سافر إلى بلدهم ليكمل دراسته، أبو جميل مات منذ سنوات والبعض يقول إنه هرب منها وتزوَّج من آسيوية وأنجب منها الكثير من الأطفال. كيف لم يخبرها فنجانها عن مكان أبو جميل؟ تساءلت. جعلت الصورة التي رأتها في فنجان عمَّتي حقيقة، واصطدت ثعبانًا من إحدى المزارع المنتشرة حولي. وضعته في صندوق وأفلتُّه في غرفتها من النافذة التي تركتها مفتوحة كأنها تسهِّل لي

عملي لتنهي معاناتها بنفسها. ولأنها كانت تفترش الأرض حين تنام، وجد الثعبان طريقه إليها بدون أدنى جهد. وماتت أم جميل.

حين عدت إلى غرفتي، فتحت المذياع فجاءني صوت عبد الحليم حافظ يغنِّي قارئة الفنجان، كلما سمعت الأغنية تعجَّبت أنه لم يغنِّ قول نزار:

"فنجانُك دنيا مرعبةٌ

وحياتك أسفارٌ وحروب"

لو كانت عمَّتي على قيد الحياة لحزنتْ على موتها. وربما كانت ستتذكَّر أشياء أخرى كانت تراها في فنجانها، ولم تخبرني عنها، وحتى لو كانت أخبرتني عنها، فعمَّتي في أواخر أيامها كانت تعيد عليَّ الحكايات، وتغيِّر في تفاصيلها، وتخترع قصصًا جديدة عن أشخاص ماتوا منذ سنوات. لكن الغريب في أمر عمَّتي أن القصص الجديدة كانت قصصًا طيِّبة، كأن ضميرها كان يدفعها لتحسين صورهم، والتكفير عن ذنوبها في ذكرهم بالسوء أمامي. رفعت صوت المذياع، وغصت في كلماتها، وأنا أتابع الدخان المتراقص أمامي.

"بصَّرت ونجَّمت كثيرًا

لكنّي لم أقرأ أبدًا فنجانًا يشبه فنجانك"

ريما

القتل يُكلِّف قليلًا، أما البقاء على قيد الحياة فهو الذي يُكلِّف غاليًا.

- إيزابيل الليندي

تحبُّ أمي تلاوة ماهر المعيقلي، تقول إن صوته يخترق قلبها، رأيتها أكثر من مرة تبكي، وهي تسمعه يتلو الآيات، تترك الجهاز يعمل كل الوقت، تقول إنه يختم القرآن كل يوم مرة، بيتنا محفوظ بالقرآن، ولن يمسّنا سوء. توصيني كلما هممت بالخروج من البيت بأن أسمع القرآن. لا تسمعين أغاني وانتِ تسوقين. في البيت برايج بس وانت تسوقين لا. أحاول أن أطيعها لكنني أحيانًا أضع أغاني، لأن الآيات تدخلني في حالة استرخاء وأشعر بالنعاس. أخبرها فتقول إنه إبليس يوسوس لي، ويهيِّئ لي هذا الأمر، حتى يشغلني عن القرآن والذكر. أضحك، وأعدها بأنني سأشغل القرآن، أو سأضع سي دي الشعراوي وأستمع للتفسير. حين أعود إلى البيت أجدها جالسة تسبِّح، أو تكون في المطبخ أو في غرفتها، وصوت المعيقلي يصدح في البيت. مرة عطب الجهاز، فبقي المنزل صامتًا مثل قبر كما وصفته. المعيقلي يونسني تقول. تطلب جهازين، الآخر تتركه للاحتياط. أشاكسها قائلة بأنني أغار من المعيقلي، لأنه يرافقها كل الوقت، تضحك وتقول القرآن هو الذي يرافقني، ثم تبتسم وتضيف والمعيقلي جزاه الله خيرًا.

تحزنني أمي التي ترمَّلت باكرًا جدًّا، فَقَدَت حبيبها الذي أحبَّته منذ صغرها، حبيبها الذي يكبرها بسنوات، تزوَّج بأخرى، وأنجب ثم عاد ليأخذها. دعوتُ كثيرًا ليتزوَّج بي، كان قد نسيني، أو أنه في الأصل لم يكن يحبُّني، كما كنت أحبُّه. كان يزورنا كل عيد، يعطيني عيدية كبيرة. مرة سألني إن كنت سأوافق على الزواج به، وقتها كنت في التاسعة. قلت نعم وغمرتني سعادة

كبيرة. وبقيت ملتصقة به، وحين استأذن للذهاب رفضت تركه. ضحك كل مَن في المجلس بمَن فيهم والدي. لاحقًا صاروا كلما جاء يقولون: جاء زوجك. كبرت أمي، ولم يعد يسمح لها بأن تخرج للسلام على زوجها، وأخذ العيدية منه. ظنَّت أنه نسيها، لكنها لم تنسه، وكل عيد كانت تتزيَّن على أمل أن يراها. حين بلغت العشرين كان هو في أول الأربعين. خطبها من جدِّي، ووافقت بدون تفكير. كلما تخيَّلتها هي وأبي تمنَّيت قصة حب شبيهة بقصة حبهما. كثيرًا ما أسألها عنه: بقدر ماذا كنت تحبِّينه؟ يتورَّد وجهها، وتقول أكثر من أي شيء. أعطتني مرة دفتر مذكراتها، أقرئي لتعرفي كم كنت أحبُّه.

"حبيبي سالم، لقد مرَّ وقت طويل على آخر مرة رأيت فيها وجهك وسمعت صوتك ولمست يديك. والشوق الذي في روحي إليك كبير وممتد إلى السماء. في هذا الوقت الطويل الذي قضيته بعيدة عنك تمكَّنت من اكتشاف أشياء كنت أجهلها عني وعن العلاقة التي تجمع بيننا. لقد كنت يا حبيبي طيلة السنوات الماضية أظنُّ أن الضوء الوحيد الذي أنار عتمتي هو أنت وأن الحياة صارت حلوة وعذبة معك أنت، وأنني لولاك ما كنت لأصير أنا التي أحب. وكنت أظنُّ أيضًا أنني وجدت فيك توأم روحي وشبيه قلبي ورفيق أحلامي. لكنني منذ أن غبت عني، فكَّرت في كل الأشياء التي ظننت أنني عرفتها وكنت أزعم أنها حقيقة لا ريب فيها. والصحيح يا حبيبي أن كل ما حدث لنا، كان نتيجة أفكار وضعناها في رأسينا وبنينا عليها أحلامنا وقناعاتنا. فأنا أقنعت نفسي بأنك توأم روحي وأنت أقنعت نفسك بأني فتاة أحلامك. وكانت ظروف لقائنا مهيأة لنصدِّق ما اعتقدنا ونعتقد بما حلمنا. فكرتي عنك وفكرتك عني، ليسا سوى قرارين اتخذناهما، ونحن مخيَّران من قِبَل الخالق. فأنت أحببتني باختيارك، وأنا أحببتك باختياري. وثم بنينا على هذين الخيارين قصة ما زلنا نعيشها وما زالت فصولها تتوالى بكل ما فيها من أحداث". كان النص مؤرَّخًا بتاريخ حديث، سألتها:

- هل تكتبين لأبي حتى بعد موته؟

- لم أتوقَّف أبدًا عن الكتابة له، كانت لديَّ عشرات دفاتر المذكرات، كتبت له عن كل شيء، كتبت له بدون أن يقرأ. لكن كلماتي كانت تصل إليه،

ولهذا جاء وأخذني. ثم رحل عني سريعًا، مع هذا لم أتوقَّف.

لقد أنقذت الكتابة حبّهما، خلَّدته ومنحته صفة الاستمرارية. أن نكتب لأحد فهذا يعني أنه لا يزال باقيًا. الكتابة ذكر وذاكرة، والموتى لا يموتون بالموت، إنهم يموتون حين نتوقَّف عن تذكُّرهم. لهذا أنا أكتب، ولهذا أصنع شخصيات شبيهة بالناس الذين أحبُّهم في روايتي التي أكتبها سرًّا. مرة حكى لي هادي عن شخصية البطلة في روايته "لورا". لورا يا ريما، هي صورة الفتاة التي أحبُّ أن أحبَّ. عرفت فتاة اسمها "نورا" وكنت كلما كلَّمتها أو التقيتها اقتبست من الأغنية "فداء نورا الغواني". لقد أحببت نورا التي اعتقدت أنها نورا، كانت غامضة وبعيدة، فصنعت لها شخصية وصدَّقت أنها هي. وضعت كل الصفات التي أحبُّها في المرأة، الهادئة الجامحة حينًا، الطيِّبة الرقيقة، العفيفة النقيَّة التي لا تكون طوعًا لسواي. الحاضرة دومًا لي، امرأة تكون رهن إشارتي، لا يشغلها شاغل عني لكنها مشغولة بتحقيق طموحها. تبدع في الطبخ والغناء وحتى الرقص، امرأة كاملة حسب معاييري. نورا الحقيقية لم تكن كاملة، لأنه لا يوجد من المخلوقات مَن هو كامل. لم تكن أصلًا كما تخيَّلتها ولو بنسبة بسيطة. حين أدركت الأمر صعب عليَّ موضوع الارتباط بأية واحدة. معاييري معقَّدة يا ريما ولا أعتقد بأنني سأجد مَن تحتملني. لهذا أنا أكتب. أصنع العوالم التي أريدها وأعيشها. أصنع شخصية وأقع في غرامها، وحين أرغب بتأديب شخص ما في الواقع، أصنع منه شخصية سيِّئة وأنتقم منه من خلالها. أقتله، أعذِّبه، أنكِّل به. شرير نعم لكن هذا هو أنا، سلاحي قلمي وعالمي رواياتي.

بعد اعتراف هادي في تلك الرسالة، صرت كلما سمعت الأغنية تذكَّرت الشخصية، وكلما قرأت عنوان الرواية تذكَّرت الأغنية. أدمنت على سماعها. كنت أشغِّلها عندما نجلس أنا وأمي في بعض الأوقات. أمي تعرف الأغنية، وتحبُّ شعر غازي القصيبي، ووالدك كان يحبُّ محمد عبده تقول. كلما ركبت معه في السيارة كان يضع أغانيه، يذكِّرني بشهر عسلنا. تغرق عيناها بالدموع وتترحَّم عليه. لم أرَ يومًا سيِّئًا معه. كل أيامي معه كانت جميلة.

عِندما تُصبحُ القُيودُ حنانًا وتمُرُّ السَّنون مِثلَ الثَّواني

عِندها تُصبحُ القُيودُ انعِتاقًا وانطلاقًا إلى عزيزِ الأماني

فداءُ لورا الغَواني

شاهين

إن القتيل ليس بريئًا من جريمة القتل.

- جبران خليل جبران

صحوت على رنين الهاتف، لا يتَّصل بي مرسي في العادة، لا بدَّ أنه وجد المال الملفوف في المنديل الورقي، وسيسألني إن كنت فقدت نقودي. حاولت تجاهل الهاتف، وكتمت صوت الرنين، لكن النور الذي كان يشعُّ منعني من العودة إلى النوم. كانت الساعة تشير إلى السادسة مساء. هنالك ساعة إضافية متبقِّية على موعد استيقاظي للذهاب إلى وردية الليل. أفسد مرسي نومتي ونهضت. عاد الهاتف للرنين. يا لغباء مرسي، المال ملفوف في منديل ورقي، محشور تحت إحدى الوسائد. يعني هو متروك هنالك من أجله ولسبب ما. لكنه حتى لو قدَّمت له المال بيدي، سيسأل ويكثر الكلام والشكر، ويخبرني بأنه كان في حاجة ماسَّة للمال، وأن الله بعثني له في الوقت المناسب. فكَّرت في أنه قد يأتي إليَّ ولا أرغب بأن يعتاد هو أو غيره على زيارتي.

- أهلًا مرسي.

- إنت نايم يا شاهين؟

- كنت.

- متأسِّف بس إنت نسيت فلوس عندي لما جيت قبل يومين؟ الولاد عندي وكانوا بيلعبوا وجابولي منديل فيه فلوس. أنا قلت يمكن تكون بتاعتك، محدش جالي من ساعتها.

- لا ليست لي.

- غريبة فعلًا.

- ما دمت وجدتها ولم يأتِ أحد إليك، فهي من نصيبك.

- فِكرك كده؟ والله دي جت في وقتها، حفرح الولاد وأودِّيهم السوق. ربنا يفتح عليه، ويرزقه ابن الحلال اللي حطَّها لي ومشي.

أغلقت الهاتف ودخلت إلى الحمام. سمعت أذان المغرب فعصرت بعض المعجون على فرشاة أسناني، وحشرتها في فمي، نزفت لثتي كثيرًا، يحدث هذا معي كلما استخدمت فرشاة جديدة. مررت لاحقًا ببقالة زمان، وابتعت عصير ليمون. رشفته مع عود السجائر. حاولت تبديد الوقت فمررت بمحطة البنزين المصغّرة التي بُنيَت حديثًا في الأحياء السكنية، وعبَّأت خزَّان الوقود. ثم مررت بمطعم الأجواء، بمجرّد أن رأى العامل سيارتي، رفع إبهامه يخبرني بأنه يعرف طلبي. انتظرت خمس دقائق فجاءني بشطيرتين، واحدة ناشف دجاج، والأخرى نقانق مع الجبن، وأكلتهما على عجل لأسكت بطني الذي بقي يطلق أصواتًا، بسبب عصير الليمون الذي شربته على معدة خالية.

لمحت حمزة داخل المطعم، كان يأكل مع بعض الأولاد. ربما وجد المبلغ الذي وضعته على أريكته، وها هو يبدِّد هذا المال على عزومات أصدقائه. فكَّرت في طريقة أسلِّم بها المال إلى أمِّه المزعجة لكنني لم أجد. ولم أرغب في إضاعة وقتي في التفكير بطرق توزيع مال السيدة. هي قالت أعطها لمَن يحتاجها، وأنا وزَّعتها على بيوت المحتاجين. قدت سيارتي إلى المستشفى على مهل. فكَّرت في السيدة، لا أرغب برؤيتها أو رؤية أي أحد اليوم. أتمنَّى أن تمرَّ ورديتي بهدوء دون حدوث مشاكل في الأجهزة. اتصال مرسي وضعني في مزاج سيِّئ، على الرغم من أنني كنت متوقِّعًا ما سيحدث بعد أن يجد المال. تتابعت المشاعر السيِّئة والمواقف المزعجة التي لا رغبة لي بتذكُّرها. صوت الشمطاء وشكل برقعها المائل دومًا على وجهها لا يفارقان رأسي. شاهينوه، شاهينووه. ثم تقرصني في خدِّي أو تشدُّ أذني. وين منخش يا حمار؟ تسأل، ولا تتركني أجيبها. اجلب نعالا وتعال يا ولد حسنوه روزنة.

أخرس منبِّه السيارات خلفي عند إشارة المرور صوتها. أشعلت سيجارة، ودخَّنتها مخفضًا زجاج النافذة الأمامية. وشعرت بضيق في صدري. أوقفت سيارتي في الموقف المعتاد. في وردية الليل تكون المواقف شبه خالية. سيارة أعرفها توقَّفت بالقرب من سيارتي. إنها سيارة إحدى الممرِّضات في قسم الأطفال. أنزلت نافذتها حين نزلت من سيارتي.

- مرحبًا شاهين.. مبروك السيارة الجديدة.

- أتمَّت السنة الثانية، لم تعد جديدة.

- ما شاء الله لكنها تبدو جديدة. منذ أخذت رخصة القيادة وأنا أحلم بشراء باثفياندر، لكن تعرف.

أعرف ماذا قلت في نفسي، لن أفتح معها موضوعًا، كي لا تخبرني عن وضعها المادِّي ومشاكلها الأسرية. ابتسمت باقتضاب وأقفلت سيارتي وابتعدت.

- خلِّينا نشوفك شاهين.

لم ألتفت نحوها وسرت نحو المدخل.

لطالما كان شعوري الدائم بالحنق ونفاد الصبر مع امتلاكي لأشياء لو عرف الآخرون أني أمتلكها لحسدوني عليها، أصعب من أي شعور يتملَّك الوحيدين والمحتاجين. ستجدونه شعورًا غير قابل للتبرير أو للتصديق. وحتى التقبُّل. لكنني على يقين بأن الشعور السيِّئ يصبح هيِّنًا حين يكون الشعور به ممكنًا. أعني أن الشعور بالذنب يخبو مع الوقت حين نتقبَّل ذنبنا ونقرُّ به. الحزن كذلك، الغضب، الوحدة. لكن عدم تقبُّلنا للشعور الذي ينتابنا ورفضنا له أو خجلنا منه يجعله شديد الوطأة، ويدخلنا في صراع أبدي معه. وأنا متقبِّل لمشاعري كلها، بل ومسرور منها وممتنٌّ لها؛ لأنها تمثِّل لي درعًا يحميني من المشاعر الأخرى التي هي أكثر خطورة عليَّ. مثل الحب، وما أخطر الحب على رجل صفته القتل.

جاءت ممرِّضة قسم الأطفال عاشقة الباثفايندر إلى غرفتي، وأنا منهمك في إعداد تقرير طلبه مني رئيس القسم. وضعت أمامي علبة وقالت إنها فطائر أعدَّتها بنفسها. شكرتها فسحبتْ كرسيًّا وجلست قربي. التفتُّ نحوها بنظرة مستفهمة، قالت إنها في استراحة، وفكَّرت في تناول السحور معي. لا أشعر بالجوع شكرًا. وركَّزت نظري على الشاشة. انتفضت في مكانها، وأخذت العلبة وتركت الغرفة. بقيت ساكنًا لدقائق أحاول استيعاب الموقف. بلهاء، تمتمتُ وعدتُ للتقرير.

مرَّت الليلة بدون مشاكل، كنت قد أنهيت التقرير، وبعثته لرئيس القسم. رشفت بضع رشفات من الماء قبل أذان الفجر وبقيت في انتظار أن تنتهي الوردية عند السادسة. غادرت المستشفى متوجِّها إلى سيارتي. كان باب السائق مخدوشًا بطريقة وحشية، وسيارة ممرِّضة قسم الأطفال ليست في مكانها، حيث تركتها بالأمس. فار الدم في رأسي، وعزمت على أن تنال البلهاء جزاءها. ركبت السيارة وقدت إلى البيت. سأضطرُّ إلى الذهاب لكراج السيارات من أجل إعادة طلاء الباب الذي تشوَّه. ستدفع ثمن فعلتها.

ريما

إن الذاكرة والألم توأمان، لا تستطيع قتل الألم دون سحق الذاكرة.

- غادة السمان

حين تغيب طويلًا، ولا تردّ على رسائلي التي أرسلها لها على الواتس أب، أعرف أنها هناك، أعرف أنها عند أبي. أخذتني مرة واحدة، وأجلستني قرب شاهد القبر. وراحت ترشُّ الماء من القناني التي جلبتها معها، تبلِّل قبره بدموعها. جلت ببصري على القبور الكثيرة المصفوفة في المقبرة. تلك التي كلما مررنا بها، ترفع يدها وتقول: "سلام عليكم، أنتم السابقون ونحن اللاحقون" ثم تقرأ الفاتحة، وتتبعها بسورة يس. ألمح رجالًا يجلسون عند بعض القبور وبعضهم يفعلون كما فعلت أمي، يرشُّون الماء ويذرفون الدمع. تخرج أمي مصحفها وتقرأ بضع آيات. لا تلقِّنني شيئًا، ولا تطلب مني أن أدعو. تتركني في حيرتي، وأنا أنقِّل بصري بينها وبين زوّار القبور. لا توجد نساء غيرنا. نجلس نصف ساعة ثم نمضي. لم تأخذني معها مرة أخرى. ربما ندمت لأنها أخذتني، وأنا لم أفهم السبب خلف أخذها لي معها. لم نتكلَّم في الموضوع. كنت في السادسة عشرة وقتها. وحتى اليوم لم أحدِّثها عن زيارتنا تلك، ربما خشية أن تأخذني معها من جديد.

- أين أنت يا أمي؟

- كنت عند والدك.

ومن نبرة صوتها أعرف أنها بكت كثيرًا. في إسطنبول، رأيت مقبرة لا تشبه المقبرة التي يُدفن فيها أبي، رأينا المقبرة من الأعلى، جالستين في التلفريك، الذي نقلنا من جهة إلى أخرى، قال الدليل السياحي باستظراف، لو

وقعنا الآن سنجد قبورنا جاهزة. لم أفهم ما قاله، فالمنظر في الأسفل لا يوحي بوجود قبور. حين نزلنا من التلفريك، قادنا الدليل الظريف إلى المقابر. شواهد القبور المرتفعة، والزهور المزروعة بعناية، والتي يتمُّ تغييرها حسب الموسم، لم تثر فيَّ حتى الرغبة بالبكاء واستحضار الموتى. وحدها أمي سالت دموعها. وأنا بقيت مستاءة شاعرة بالذنب؛ لأن الموت وذكره لا يخيفني ولا يبكيني. هل لأني مؤمنة مسلَّمة بالقدر، مستسلمة له. أم أنه تبلُّد وحنق دائم لا شفاء منه. تجاهلت المقبرة وما فيها، وتوقَّفت عن المقارنة غير المتكافئة التي صنعتها بين قبر والدي وقبر السيد إيمره أوغلو. حتى أرملته التي جاءت لزيارته كانت تضع المساحيق، وتلبس المجوهرات. لم تحمل مصحفًا ولا قناني ماء. لامست الزهر بطرف إصبعها ومضت. أمي بقيت تتابعها بنظرها. كأنها تقول لها: أنا أشعر بك. أو ربما تقول: لا توجد مَن تحبُّ زوجها مثلما، أحببتُ سالم.

عندما عدنا بحثت أمي طويلًا عن بيت تشتريه في إسطنبول. وجدت شقَّة بسعر جيد، ذهبنا في العام نفسه لاختيار الأثاث وتجهيز الشقة. وكل صيف عندما أنتهي من امتحاناتي كنا نسافر ونبقى شهرًا أو اثنين. ومثلما كانت توزِّع الطعام والكساء على الناس في البلاد تفعل الشيء نفسه في إسطنبول.

جافاهير هانم. هكذا يسمُّونها، وأنا كوجوك هانم. السيدة الصغيرة. لم تعجبني إسطنبول. لكن لا خيار لي، أمي أحبَّتها وأنا مربوطة بحبلٍ سريٍّ خفيٍّ بها. لا أكون إلا حيثما تكون. ما هو البلد المفضَّل لديك؟ كان هادي يرسل لي سؤالًا واحدًا، يريد أن أجيب عليه في رسالة طويلة، لعبنا هذه اللعبة لأشهر. نرسل السؤال، ويردُّ الآخر بإجابة مفصَّلة. ولأني لم أزر غير مكَّة وجدَّة وإسطنبول. لم يكن لديَّ الكثير من الخيارات لأجيب.

لا أعرف يا هادي. أمي تحبُّ إسطنبول (وجه محرج). تحبُّ فيها عمارتها، تقول إنها تجمع بين التاريخ والحداثة. فيها سحر لا تعرف كيف تصفه. البوسفور يدعوها لتغرق نفسها فيه، لكنها تعرف بأنه لن يبتلعها. هواء إسطنبول ينقِّي رئتيها، تشعر أنها تكون أصغر عمرًا - وهذا صحيح - تشعر أنها تكون خفيفة وحرَّة وسعيدة. طعامهم لذيذ وشعبهم طيِّب على عكس ما يقال عنهم. جافاهير هانم، هي الضيفة التي يترقَّبون وصولها كل صيف. السخية الراقية

والطيِّبة. تعلّمت لغتهم بسرعة، وصارت تردِّد كلمة "جانم" لكل مَن يحدِّثها تمامًا كما هي ودودة مع الجميع في البلاد، فتسمِّي الرجال أبويه والنساء أمايه. تصمت أمي كثيرًا في إسطنبول. تكتب رسائل لوالدي وتسرح، أشاكسها وأقول:

- سأتزوَّج من تركي، حتى تتمكَّني من البقاء هنا إلى الأبد.

تقرصني.

- بياخذج ولد بلادج، أنت بنت سالم، بلادهم حلوة، وهلها طيبين بس حياتهم غير عن حياتنا، خلي عنج هالرمسة.

- أمي أنا أصلًا لن أتزوَّج.

- بتعرسين يا ريموه، بتعرسين إن شاء الله.

هل ما زلت تظنين أنني سأتزوَّج يا أمي؟ غيابك، وتأخُّرك عن المجيء كل صباح، يخبرانني بأن اليأس قد تسلَّل إلى قلبك. إنك حتى لا تعتذرين لي عن غيابك. ما الذي حدث يا أمي، ما الذي حدث يا جفاهير هانم. لقد تركت حبلك السرِّي ملتصقًا بي، لا أقدر على الابتعاد عنك كثيرًا، وإلا سيخنقني عذاب الضمير. ستنخنقني الذكريات، ووجهك وهو يبتسم حين أكون حولك، ويذوي كلما ابتعدت. سيكسرني خوفك وقلقك الدائم عليَّ. لماذا يا أمي، حكمت عليَّ بالسجن وأنا حرَّة. علَّمتني الطيران وقصصت جناحيَّ. لا أعرف إن كنت تعرفين أنك بهذا تعذبينني. وأنك صنعت مني فتاة مهزوزة مهزومة. تعيش صراعاتها بداخلها ولا تجرؤ على الاعتراف بأنها تعيسة، لأن اعترافها بتعاستها يعني اعترافها بعدم احتمالها العيش في ظلك.

- تعالي تعالي، فديتج يا حفصة.

- حبيبتي خالتي، سامحيني تأخَّرت عليكم كثيرًا.

- مسموحة أمايه، الله يلوم اللي يلومج.

شعرت بدقَّات قلبي تعلو، ووددت لو أصحو من غيبوبتي وأضمُّهما، ضمَّتني حفصة، وقبَّلت رأسي، أعرف رائحتها، ودفء يديها. جلست قربي ممسكة بيدي، وفمها قريب من أذني.

- حبيبتي. آسفة تأخَّرت عليك كثيرًا. غصبًا عني، أبويه خلاص راح. الله يرحمه. هيا استيقظي، اشتقت إليك، اشتقت لصوتك، يا ريما، وخالتي جواهر اشتاقت إليك.

اختنق صوت حفصة، لكنها تبتلع دموعها، لا تبكي وهي بقربي. تخشى عليَّ من دموعها.

- حسن كلَّمني، وبكينا نحن الاثنان في الهاتف. تضحك حفصة. وأشعر بقلبي يضحك. لكن تعرفين؟ لم أعد أحبُّه. شعرت بأنني أكلِّم صديقًا قديمًا، أخًا ربما، لكن لا حب، قال إنه سيخطبني من جديد، وأنا لم أرفض. لو وافق أخي سأوافق. لأنني خائفة من الوحدة يا ريما، المنزل بدون والدي مخيف، هذا إن بقي المنزل. تعرفين أخي، سيبيعه مؤكَّد، وسأضطرُّ لشراء شقَّة. وتضحك من جديد. ثم همست: لو تعرف خالوه جواهر ستحلف على أن آتي لأسكن معكما. وأنت لو كنت في البيت لجئت لأسكن معكما بدون تفكير، وبلاه حسن والزواج من حسن. هيا استيقظي يا ريما. اشتقنا لك يا حبيبتي.

شاهين

معظم البشر لديهم القدرة على القتل.

- ريتشارد راميريز

أنا على يقين بأنه لو تُرك الآخرون وشأنهم لقلَّ عدد المصابين بالصداع في العالم، ولقلَّ عدد جرائم القتل، خذوها مني أقول لكم. الفضول آفَّة كبرى. ألم يقتل القطة؟ وقتل الثعلب والكلب والأسد وقتل الإنسان. إن أسوأ ما يمكن أن يحدث لي هو أن يتلصَّص أحدهم عليَّ، وأن يتدخل في شؤوني. ولست حتى الآن قادرًا على فهم هذه الطبيعة الحيوانية في البشر. سيخالفني العلماء ويقولون إن فضولهم هو ما دفعهم للاكتشاف والاختراع والابتكار.

فالفضول ما هو إلّا تساؤلات تخرج من حدود العقل، فتمنح الإنسان تلك الدفعة التي تجبره على التحرُّك والبحث والوصول في النهاية، إلى الإجابات التي تريح عقله من التفكير. حسن جدًّا. سأفهم فضول العلماء وسأقدِّره. فهم في النهاية مَن جعلوا حياتنا سهلة. لكن فضول المتطفلين هو ما لا يمكنني فهمه أو غفرانه. أظنُّ أن جميع الفضوليين يجب أن يموتوا. لأنهم لا يفعلون شيئًا سوى إزعاج المحيطين بهم. يتلصَّصون عليهم. يكشفون أسرارهم. يقتربون منهم واضعين أقنعة من الطيبة والاهتمام؛ ليعرفوا عنهم ثم يقنعوهم بأن لا مصلحة لهم سوى أن يمدوا يد العون والمساعدة. ثم تأتي الفقرة الأكثر إثارة للجنون: إسداء النصح. ليس من حقِّ أحد أن يوجّه النصح والمشورة لمَن لم يطلبها منه. مَن أنت لتنصح؟ مَن أنت؟ إنك مليء بالثغور والعيوب الواضحة.

أيها الفاشل في حياتك من كل وجوهها. تفشل في حياتك مرات ثمّ تنصح الفاشلين مرة بعد مرة. عمَّتي عالية كانت من أكثر الناس فضولًا ورغبة في

التحكم في حياة الآخرين. رحمة إلهية أنها لم ترزق بأبناء، كانت ستحوِّل حيواتهم إلى جحيم، وهي تحاول ترتيب شؤونهم وتجبرهم على القيام بأمور تجدها هي مناسبة. لقد حاولت جاهدة دفعي للزواج، في الوقت الذي كنت أحلم فيه بحرِّيتي منها والخروج من البيت الذي أسرتني فيه مع زوجها. وعمَّتي كونها مزعجة فهي مثل كل المزعجين، يكونون في الغالب مصدر إزعاج للجميع. والمزعج بطبيعته سيظلُّ مزعجًا كل عمره. لهذا أنا أخلِّص العالم منه، فينقص العالم مزعجًا واحدًا في كل مرة. ويكذب مَن يقول إنه لم تراوده فكرة قتل أحدهم. جميع الناس تنتابهم تلك الرغبة. الجميع يغضب ويستاء، والجميع يتعرَّض للأذى والقهر. وهؤلاء المؤذيون الذين يدفعوننا للغضب والاستياء لا يستحقون سوى الموت.

كان حميد الأعور أحد أصدقاء زوج عمَّتي، ليس صديقًا بمعنى الصداقة، لكنه كان يأتي إلى بيتنا كثيرًا، أخافني شكل عينه المفقوءة والأخرى التي ضعف بصرها بعد أن تمكَّن منه داء السكري. يسميني شويهين، كلَّما دخلت عليهم واقتربت منه، تحسَّس وجهي وكتفي، شويهين اليابس. ثم يبتسم ببلاهة. ما يطعمونك قوم مانع؟ أنظر نحو زوج عمَّتي، فيغمز لي بأن أتجاهل كلامه. كان أحيانًا يأتي إلى البيت في غياب مانع. تدخله عمَّتي إلى المجلس الخارجي، وتطلب مني الجلوس معه ريثما يأتي زوجها. وحين تتركنا وتغلق الباب حتى لا يخرج هواء المكيّف، يدعوني حميد للجلوس قربه، يتحسَّس وجهي، ثم يتحسَّس جسمي بطريقة كانت تضايقني. وكلَّما حاولت الإفلات منه كان يبتسم ويطلقني، ثم يغافلني ويمدُّ يده إليَّ. تنبَّهت على الرغم من صغر عمري إلى أن حميد رجل سيئ، وقد كان يتعمَّد المجيء إلى البيت في غياب مانع لينفرد بي، فهو يعرف بأن عالية لن تشاركنا الجلوس.

جاء إلى بيتنا من جديد واستقبلته عمَّتي في المجلس الخارجي مثل كل مرة، تواريت أنا عن نظرها حتى لا تطلب مني مرافقته، ثم أرسلت له القهوة والضيافة مع الخادمة. راقبته من النافذة يتحسَّس الدلة والفناجين، ويسكب له فنجانًا فيملؤه، ويندلق على يده وملابسه. بقي متململًا قرابة الساعة، آملًا أن ترغمني عمَّتي على مجالسته أو أن يعود مانع من السوق. ثم ببؤس حاول

إيجاد طريقه إلى الخارج، لكنه جلس على كرسي كان يبعد عن الباب بضع خطوات. وبقي في انتظار أن يعود مانع أو يدخل عليه أي أحد وغفا على الكرسي مكانه. بعدها لم يأتِ إلى البيت إلّا برفقة مانع. وظلَّ ينعتني باليابس حتى بعد أن صرت مراهقًا. بعدك يابس شويهين. كان قد أصبح نحيلًا جدًّا وبرزت عظامه. تخاصم مع مانع بعد سنوات من الرفقة وقضاء الساعات في بيتنا، السبب أن مانع دافع عن صديق مشترك بينهما. نعت حميد بالأعور فردَّ عليه حميد بضربة من يده أطلقها في الهواء، لكنها استقرت على رأس الرجل وأسقطته.

لامه زوج عمَّتي وقال في نوبة غضبه: ما الجديد؟ أنت أعور حقيقة. الرجل الذي سقط كان كهلًا وبالكاد يقدر على المشي إلى المسجد. وضعوه في أقرب سيارة وأخذوه إلى المستشفى. ضربة حميد العشوائية سبَّبت له ارتجاجًا في المخ، وبقي في المستشفى أسبوعًا تحت المراقبة. لقد أنهيتُ حياة حميد الأعور بضربة على رأسه تشبه الضربة التي أدخَلَتِ الكهلَ المستشفى. كنت قد بلغت السادسة عشرة ومرَّت أعوام على المقاطعة التي حدثت بين مانع وحميد. وحميد أصبح شبه مقعد، لا يخرج من البيت إلّا نادرًا.

وعلى الرغم من المقاطعة والجفاء كانت عمَّتي ترسل له الطعام مع الخادمة، تتركه في الخارج وترنُّ الجرس، فيأخذه هو أحيانًا وأحيانًا تبقى الصحون وتعود الخادمة لأخذها وقد فسد الطعام بداخلها. رأيته في حلمي، وكان يتحسَّسني وقد تمكَّن مني، فبكيت، واستيقظت من الحلم ودموعي تسيل على وجهي. لم يبرح صوت الشمطاء رأسي: كان عليك أن تقتله في ذلك اليوم. هل يمكنك أن تتخيَّل كم صبيًّا تحسَّس؟ ذلك الحثالة. أنت المسؤول عن كل الأولاد الذين أساء إليهم. ماذا تظنه يفعل حين يغلق على نفسه الباب، ويجلس في الداخل ساعات وساعات؟ لا بدَّ من أنه يعبث بالصبية الصغار واحدًا تلو الآخر. اقتله. اقتله يا شويهين اليابس ولد حسنوه روزنة. اقتله. دخلت إلى بيته، كان بابه مفتوحًا ورأيته يجلس مادًّا رجليه مواجهًا التلفاز. تنبَّه وتلفَّت ثم قال بصوتٍ عالٍ: منو هنيه؟ اقتربت منه ووقفت أمامه لا يفصلني عنه شيء. شويهين؟ وابتسم ابتسامته البلهاء. اسمي شاهين.

لكمته على رأسه ففقد الوعي ثم أمسكت به وأخذته إلى حمام الغرفة التي ينام فيها. تركته يهوي على الأرض، استقرَّ رأسه قرب المرحاض. كانت عيناه الخاويتان تنظران نحوي.

ريما

في ذلك اليوم حدثت جريمة قتل، كان ذلك في قلبي.

- جين كيسي

"حين جاء المخاض أمي، كنت في السادسة، أتذكَّر الحقيبة البيضاء التي جهَّزتها أمي بثياب المولودة الجديدة. كنا نجلس في الصالة، أنا أتابع مسلسلًا كرتونيًّا، وأمي تقلِّب صفحات مجلة الأسرة العصرية. نهضت من مكانها فجأة وقد تركت بركة من السائل الأبيض على الكرسي. اتصلت بوالدي الذي غادر المنزل لتوِّه، وهي تقول: لقد حان موعدي يا سالم. تركتني ودخلت إلى الحمام. سمعت صوت رشاش الماء الذي توقف سريعًا وخرجت أمي وهي تلبس ثيابًا نظيفة وتضع عباءتها. نادت الخادمة وأشارت إلى الكنبة: سوري كانتي، سوّي تنظيف، أنا بروح المستشفى. شوفي ريما، بابا بعدين يجي يشيل.

- أمي إلى أين تذهبين؟

- إلى المستشفى حبيبتي.

- ما هذا؟ وأشرت إلى الكنبة.

- انسكب كوب الماء من يدي ريموه، كوني هادئة. سيأتي بابا ليأخذك لاحقًا. سأذهب لأجلب أختك الصغيرة.

سالت دموعي. رغبت بأن أقول إنني لا أريد أختًا صغيرة. لكنني قلت أرجوها: سأذهب معكم.

- لا يمكن ريموه. ممنوع لن يدخلوك. بعدما تصل أختك ستأتين.

سمعنا صوت منبِّه سيارة والدي. سحبت أمي الحقيبة البيضاء وخرجت.

وصلتني رسالة من هادي سعيد: "صباح الخير ريما، يا له من يوم جميل. أخبريني أنك تكتبين الرواية، أرجوك".

"صباح النور هادي، نعم هو يوم جميل، ونعم أنا أكتب. مشهد ذهاب أمي إلى المستشفى؛ لتلد أختي الصغرى التي أكرهها (وجه شرير)".

"(ثلاثة وجوه تضحك)، لا يجدر بالجميلات بأن يكرهن، الكره يأكل من جمالهن، اتركي الكره والشرّ للقبيحات ليزددن قبحًا. (وجه يغمز). مصرَّة على ألا تشاركيني مقطعًا من الرواية؟ أمازحك، استمري في الكتابة، بعد الانتهاء من الرواية سأوسوس لك أن تنشريها، وقبل النشر سأقوم بقراءتها، وأكتب انطباعًا تنشرينه على غلافها الخلفي. ما رأيك (وجه بنظارة سوداء)".

"(وجهان يضحكان) موافقة. هذا إن أنهيت كتابتها". عدت إلى الرواية.

"انتظرت عودة أبي أو اتصاله لكنه لم يفعل، أنهكني التعب فنمت، في الصباح صحوت على صوته وهو يوقظني من النوم. أراني صورة التقطها من هاتفه البلاكبيري. قطعة لحم صغيرة بعينين واسعتين.

- اسمها اليازيه، يزّويه أختك الصغيرة.

- أمي جاءت معك؟

- لا، هيا قومي ارتدي ملابسك سآخذك إليها. قفزت من سريري إلى الحمام. غسلت وجهي، وركضت بالمشط إلى كانتي لتسرِّح شعري. لبست فستانًا سماويًّا كان فستان العيد الأخير. وانتعلت حذائي، وبقيت في الصالة أنتظر أبي. حين دخلنا إلى الغرفة التي ملئت بالزهور والحلويات والبالونات الوردية، انتابتني رغبة بالبكاء. لم أتمكَّن من لفِّ ذراعي حولها والجلوس على السرير قربها، لأنها كانت ترضع يزّوي. واستغرقت وقتًا لتخرج غازات بطنها بعد الرضاعة. لاحقًا أخذها أبي منها، ووضعها في حجري، والتقط لنا صورة معًا. طبعها لاحقًا، ووضعها في برواز لا يزال حتى اليوم في صالة بيتنا. لم يكن وجهي واضحًا لأنني كنت مخفضة رأسي أنظر إلى الوجه الصغير بمشاعر

مختلطة. رغبة قوية في أن أرميها على الأرض، وحرص شديد على ألّا تنزلق من يدي فتسقط وتتألم. كانت نائمة، وكثيرًا ما تنام. راقبتنا أمي، ثم مدَّت نحوي ذراعيها، حين أخذها أبي مني. قفزت إلى سريرها وملأت أنفي برائحتها التي اختلطت برائحة حليب لطخ قميصها. كانت يزوي طفلة محبوبة، كثيرة الضحك ولها عينان تأسران كل من ينظر إليهما، أكثر بياضًا مني، وأجمل ابتسامة وأنقى قلبًا. مع هذا لا أحبّها. لقد سرقت مني سعادتي.

كان الجميع يقولون بأنني وجدت مَن سألعب معها، وتصبح بعد أن نكبر صديقتَيْن. لكن ست سنوات ليست فارقًا بسيطًا لأتجاهله وأصبح صديقة لطفلة. حتى بعد أن أصبحت مراهقة، وصار من الممكن أن نتشارك بعض الاهتمامات، بقيت يزوي الطفلة التي يحبُّها الجميع والتي تفضِّل اللعب مع الصغار على الجلوس معي والتحدُّث مثل البنات الكبار. وأنا في كل الأحوال لم أكن لأتقبَّلها أو أعيرها اهتمامًا. تجادلنا أنا وأمي مرارًا بسببها. وفي كل مرة كنت أنا المخطئة. لأنني أكبر منها وأعقل، وأنا التي يجب أن أهتمَّ بأختي الصغرى وأحنو عليها. ولا أنكر أنني لم أدَّخر مناسبة، لأظهر لؤمي معها، فأحرجها أمام والدينا وأقاربنا وحتى الخادمات. فتبكي هي وتستنجد بأبي الذي خاصمني في إحدى المرات وخلته لن يصالحني أبدًا".

كلَّمتني قبل أن تصل إلى غرفتي، كأنها تعطيني فرصة لأخفي ما أريد إخفاءه عنها:

- ريموه، ماذا تصنعين؟

- أممم، أقرأ يا أمي. أنزلت شاشة الحاسوب، وفتحت الكتاب الذي وضعته قربي، ففتحت الباب وهي تنظر إليَّ.

- ماذا تقرئين؟ رواية؟

- نعم. وأريتها الغلاف.

اقتربت مني، ودقَّقت في الغلاف ثم قالت: مكتوب قصص.

قلت وأنا أتصنَّع اللامبالاة: ما الفرق؟ القصص والروايات قصص في النهاية.

- حقًّا؟ هذا وأنت تزعجينني برغبتك بكتابة رواية.

انفجرت ضحكًا وضحكت هي، ثم قالت: هيا قومي، تعالي لنتناول الفطور معًا. سويت بلاليط مع قرص بيض. تركت القبطي لمقبول العلوي، وألقيت نظرة على الحاسوب الذي بقيت شاشته منزلة وتبعتها إلى الصالة. سكبت لي صحنًا، وقطعت جزءًا من قرص البيض، ووضعته فوق البلاليط، تناولت قطعة من الجبن الأبيض، وأضفتها إلى صحني، وقطعة أخرى إلى صحنها. هكذا نأكل البلاليط مع الجبن الأبيض. مثل والدي. شاكستها: أمي كيف تعرفين الفرق بين الرواية والقصة؟

- هل أنا جاهلة يا ريموه؟ في الأصل لو كانت الرواية والقصة تعنيان شيئًا واحدًا لماذا وضعوا لهما اسمَيْن مختلفَيْن؟ بالعقل يعني. الرواية تكون طويلة، والقصة أقصر. ألا يسمونها قصة قصيرة؟ بعدين أنا قرأت روايات، وأعرف كيف تكون الرواية.

- مَن كاتبك المفضّل؟

- كثيرون، لكن المفضّل المفضّل إحسان عبد القدوس، كان أبوك يجلب لي رواياته من مصر. لمعت عيناها ثم قالت: في أيام الخطوبة.

- والشعر؟ ما زلت تحبين سعاد الصباح؟

- وسأظلُّ أحبها، تعرفين؟ سعاد الصباح مات زوجها منذ ثلاثين عامًا وما زالت تكتب له الشعر.

- مثلك يعني.

- نعم مثلي. قالتها وهي تضع أطراف قرص البيض المقرمشة التي أحبّها في صحني.

شاهين

مَن المستفيد إن كان عليك قتل الناس جميعًا لتصلح أحوالهم؟

- عز الدين شكري فشير

"اندلع حزن قابيل على أخيه هابيل كالنار فأحرقه الندم. اكتشف أنه وهو الأسوأ والأضعف، قد قتل الأفضل والأقوى. نقص أبناء آدم واحدًا. وكسب الشيطان واحدًا من أبناء آدم. واهتزَّ جسد القاتل ببكاء عنيف، ثم أنشب أظافره في الأرض، وراح يحفر قبر شقيقه. حزن آدم حزنًا شديدًا على خسارته ولديه. مات أحدهما، وكسب الشيطان الثاني. صلَّى آدم على ابنه، وعاد إلى حياته على الأرض: إنسانًا يعمل ويشقى ليصنع خبزه. ونبيًّا يَعِظ أبناءه وأحفاده، ويحدّثهم عن الله ويدعوهم إليه، ويحكي لهم عن إبليس ويحذِّرهم منه. ويروي لهم قصته هو نفسه معه، ويقصُّ لهم قصته مع ابنه الذي دفعه لقتل شقيقه".

فتحت عينيَّ بعد صراع مع الكابوس الذي كتم أنفاسي، لم أرَ حلمًا منذ أشهر، في الأصل قلَّما أحلم، وحين تزورني الأحلام تكون بشعة وثقيلة. كنت نائمًا، فالتهمني السرير وسقطت، ثم ابتلعتني الأرض، وبقيت أهوي إلى طبقاتها السفلى بلا نهاية. كل شيء كان صامتًا وشديد الحلكة، وفي داخلي كنت أصرخ، لكن صوتي لم يكن مسموعًا. هويت وهويت. وفي لحظة أدركتُ، وأنا في صراعي مع الكابوس بأنني أحلم. مع هذا كنت عازمًا على أن أستيقظ لأتحرَّر منه. فتحت عينيَّ، ووجدت الغرفة مظلمة والصمت مطبقًا. كان العرق يبلِّل قميصي ووجهي.

أشعلت المصباح الجانبي، وتناولت قنينة الماء من جانب السرير وأفرغتها في جوفي. قلبي يخفق بشدَّة، كنت خائفًا، كان شعورًا خلتني نسيته. تذكَّرت الشمطاء، كانت تطفئ الأنوار وترغمني على النوم في الظلام. تمدُّ لي فراشًا بجانب سريرها، وتأمرني بأن أغمض عينيَّ. أغمضهما بشدَّة ولا أفتحهما وأنام. ثم أصحو في الليل باكيًا، وقد انحشرتُ تحت سريرها. تصحو هي على بكائي، وتجذبني من تحت السرير من قدمي، ثم تقرصني في كتفي، وتشدُّ أذني، وتجبرني على النوم من جديد. تكرِّر هذا الأمر أكثر من مرة. ثم صارت تصفُّ تكيات تجعلني أجلبها من الصالة وتسدُّ بها الفراغ تحت السرير. لكنها بقيت تجبرني على النوم في الظلام الدامس. وحين أرفض أن أقتل الحشرات والسحالي التي تخيفها تهدِّدني بأنها ستحبسني في الحمام وتطفئ النور، وعندها ستخرج الصراصير والحشرات، وتسلِّيني هناك ما دمت أحبُّها، وأرفض قتلها. فعلتها مرة، حبستني في الحمام، ونسيتني منذ المغرب وحتى صباح اليوم التالي.

كنت قد بكيت طويلًا حتى غلبني النوم من التعب. لم تجرؤ الخادمة على أن تفتح لي، وربما نسيتني هي الأخرى أو ارتاحت من صوت الشمطاء، وهي تصرخ عليَّ بنفاد صبر وتركتني في الحمام. حين تنبَّهت العجوز فتحت الباب عليَّ، وهي تلوم نفسها على أنها نسيتني. أظنّها ضمَّتني وبكت، وأظنني سمعتها تقول إنها لن تفعلها مرة ثانية. لم أكن في وعيي فقد أنهكني الخوف والتعب والجوع. لم تحبسني في الحمام مرة أخرى. وصحتها تدهورت في الأيام التالية، فأخذتني عالية إلى منزلها.

في منزل عمَّتي عالية، كانت لي غرفة خاصة، أترك النور مشتعلًا في الليل، وهي لم تجبرني يومًا على إطفائه، حتى إنها اعترفت لي مرة بأنها كانت تخشى الظلام وهي صغيرة. لم أخف منذ مدة، حتى حين اقترفت جرائمي، لم أشعر يومًا بالخوف من أن تكتشف جريمتي وأسجن. شعور بالبلادة يلازمني، فلأسجن، لا مشكلة. وسأعترف هناك بكل جرائمي، ابتداء بقتل توأمي. لماذا الخوف الآن. مِمَّ أخاف؟ وعلى ماذا؟

عدتُ إلى النوم، أغمضت عينيَّ، تسلّلت إلى أنفي رائحة عطر الغرفة 106، وشعرت بها قريبة مني. رأسي في حجرها وهي تمسح بيدها على شعري. صوتها خافت، هل تقرأ عليَّ الآيات أم أنها تردِّد تهويدة؟ صوتها مريح، إنني أنام، أنام عميقًا، في أمان حجرها.

صحوت بعد ساعات في مزاج جيد. لم يكن هنالك تأثير للكابوس عليَّ، ولا أثر للخوف الذي انتابني. صحوت بخير، ولا أعرف لماذا. أشعلت سيجارة، ووقفت بالقرب من النافذة. بقيت أستمع إلى صياح الديك، ونقنقة الدجاجة التي كلّما اقترب منها هربت. يربِّيهما الساكن الآسيوي منذ أشهر، ولم تأتِ الدجاجة ببيضة واحدة. إزعاج فحسب. أتذكَّر القصة التي تحكيها لي عمَّتي عالية، كلّما أعطتني هي أو أحدهم مبلغًا من المال، وإن كان زهيدًا. احفظ مالك ولا تلعب به، تعرف؟ هنالك امرأة بنت عمارة من بيع بيض الدجاج. كانت تملك دجاجة واحدة، كل يوم تبيض بيضة فتبيعها، وتحتفظ بالمال. وحين جمعت مبلغًا كبيرًا، استطاعت أن تبني عمارة. وتؤجرها وأصبحت غنية. في كل مرة تحكي لي القصة نفسها. وأفكِّر أنا بأنها هي لم تبنِ عمارة، وأحيانًا أفكِّر في الدجاجة التي تبيض بيضة، من دون أن يكون لها ديك. طبعًا هذه الأفكار جاءتني بعدما كبرت، وصرت أحلِّل الأمور، وأفكِّر في كل قصة غير منطقية تحكيها لي عالية. وأظنها نجحت في جعلي حريصًا على المال، أو لنقل غير محبٍّ لإنفاقه. أكتفي بأقلِّ الضروريات، ولا أجد متعة في اقتناء الكماليات.

بقيت أقود سيارة زوج عمَّتي مانع حتى أصبحت متهالكة، وابتعت سيارة جديدة مستفيدًا من العرض الذي قدمته الوكالة لموظفي المستشفى. بأقساط مريحة وضمان لمدة خمس سنوات. كان في إمكاني شراؤها من دون أقساط، لكنني أردت أن أستفيد من العرض. تذكَّرت ممرِّضة قسم الأطفال والخدش الذي صنعته على سيارتي، والدرس الذي لقنتها إياه. تجاهلت صوت الشمطاء وتحريضها لي، اقتلها، ارتح منها، قليلة الحياء، إما أن تستسلم لي أو سأخدش سيارتك، يا لَلعجب. فكَّرت في أن أجعل نهايتها شبيهة بنهاية الدكتور نصار، أعبث بفرامل سيارتها وأتركها لمصيرها تصطدم بسيارة أخرى، أو

تنحرف عن مسارها، وتقع في البحر كما وقعت سيارته، فغرق معها، وغرقت معه وحدته التي كان يشتكي منها.

تبعتها إلى المركز التجاري، وكان من سوء حظها أنها ذهبت في أواخر أيام رمضان واضطرت إلى ركن سيارتها في الساحة الخارجية، حيث لا توجد كاميرات مراقبة. ثقبت إطاراتها الأربعة، وبقيت أراقب خروجها وانهيارها لحظة رأت السيارة. لقد صرت رقيقًا شاهينوه؟ هل هذه هي طريقة التأديب التي تستحقّها؟ تثقب إطارات سيارتها؟ رفعت صوت المذياع، كانت أغنية فرانك سيناترا (killing me softly) تذاع على قناة أجنبية.

I heard she sang a good song

I heard she had a style

and so I came to see her and listen for a while

تسرَّب إلى ذاكرتي حلم اليقظة الذي رأيته ونمت عليه، عاد العطر ليتسلَّل إلى أنفي. عطر الغرفة 106.

ريما

ومع ذلك، فإن قتل الناس لا يجدي نفعًا، مهما يكن الأمر سيئًا.

- دوروثي إل سايرز

"مرحبًا هادي سعيد، شكرًا على رسالتك، أنا لست بخير إن كنت تسأل، لقد عاودتني تلك المشاعر الثقيلة، أظنك ستكتب عني رواية (وجه يضحك). آه يا هادي لو تعرف الأفكار التي تدور في رأسي، ستكتب رواية ولا شك، لكن لحظة.. ألست الأجدر بكتابة أفكاري والاستفادة منها في صنع رواية؟ إنني متوقفة عن الكتابة منذ أشهر، لقد تجادلنا أنا وأمي حين مرَّت ورأتني أكتب، لا أفهم موقفها، حتى بعد أن أقسمت بأني لن أنشرها ما زالت مصرَّة على أن أتوقَّف عن الكتابة. أمي يمكنها أن تكون متسلّطة للغاية في بعض الأحيان. أشعر بأنني مأسورة، لقد سمحت لي بالذهاب إلى العاصمة للدراسة وقيادة السيارة، لكنني ما زلت غير قادرة على التملُّص من القيود الخفية التي تكبِّلني بها.

أنا أحبُّها يا هادي، أحبها أكثر من أي شيء، في الأصل ليس عندي غيرها، وهي لا أحد لها غيري، لكنني مختنقة. آسفة يا هادي سعيد، لا بدَّ من أنك تقول: لقد بليت نفسي بهذه الفتاة كثيرة الشكوى. أفكِّر الآن في حذف الرسالة قبل أن أرسلها إليك، لكنني سأرسلها، لأنني ما لم أفعل سأبقى حانقة، هذه هي حسنات أن تتراسل مع شخص لا يعرفك ولم تلتقه مسبقًا، الحديث مع الغرباء يا هادي سعيد، هو الذي يخفِّف علينا ثقل الحياة".

تلقَّيت ردَّه بعد خمس دقائق من إرسال الرسالة، وهذا ما أحبُّه في هادي، هو حاضر دومًا. حاضر حتى عندما لا أرغب في حضوره.

"ريمااا، أحزنتني، هل أنا غريب؟ سامحك الله، لكن إن كنت ستشعرين بتحسُّن حين تتكلَّمين معي أنا الغريب سأرضى بأن تضعيني في خانة الغرباء، حتى وإن كنا نتراسل منذ مدة طويلة. وحتى إن كنت أعرف عنك الكثير من الأسرار (وجه شرير)، أمازحك. يا صديقتي، هذه المشاعر الثقيلة التي تنتابك طبيعية، هل تتخيَّلين أن إنسانًا يمكنه العيش سعيدًا كل العمر؟ خاليًا من الهموم والمشاكل؟ لا يوجد أحد بهذا الوضع إلّا المجانين. إن كنت راغبة في أن تكوني مرتاحة كوني من المجانين. وعلى كلٍّ، حتى هذا الأمر ليس اختياريًّا. الحل يا ريما في أن تتقبَّلي ما أنت فيه، خالتي (أمك) (وجه يضحك)، لشدَّة ما تحبك وتخاف عليك تشعرك من دون قصد منها بأنك في سجن. لكن صدقيني أنت لم تعرفي معنى الأسر والسجن يا ريما، هنالك فتيات محرومات من أبسط أشكال الحرية. أنت في نعمة، لديك على الأقل مساحة من الحرية تختارين فيها ثيابك وأكلك وتخصُّصك وحتى تفكيرك. إنك قادرة على التعبير عمَّا تشعرين به. قادرة على الكتابة لي. هذه بحدِّ ذاتها نعمة (وجه ملاك)، فكِّري في النعم التي لديك وكوني ممتنَّة لوجود أمك ووجودي بالطبع (وجه يضحك). سلام".

ابتسمت وأنا أقرأ رسالته، لكن الشعور الثقيل لم يفارقني، بل إنه تضاعف وزاد عليه شعور باللوم والندم، كيف أمكنني وصف أمي بتلك الأوصاف والكتابة عنها في رسالة لهادي سعيد. تركت هاتفي، ونهضت من مقعدي أبحث عنها. كانت في المطبخ تُعِدُّ حساء، أضاء وجهها حين رأتني، وقالت إنها وجدتني متعبة، ففكَّرت في أن حساء الدجاج بالطريقة التي أحبُّها سيمنحني بعض الطاقة. أشارت إلى العلبة على الطاولة وقالت: طلبت أيضًا شطائر من المقهى الذي تحبِّين. تجمَّعت الدموع في عينيَّ وحضنتها، تمتمت بآسفة. ثم تركتها وقلت بأنني سأُعِدُّ الطاولة لنتعشَّى.

اليوم تأخَّرتْ في الصباح، دخلتْ ووقفت قربي وهِلَة ثم لثمتني على رأسي، تحرَّكت نحو كرسيها ووضعت الأكياس. جرَّت كرسيًّا وجلست قربي، كانت صامتة، لا صوت لخرزات سبحتها ولا صفحات مصحفها. أتخيَّلها تتحسَّس مكان الجرح الغائر في يدها اليمنى. تفعل هذا عندما تسرح أو يشغلها أمر ما.

حين تنبَّهت للجرح وأنا في السادسة، سألتها عنه فأخبرتني عن وقوعها من الدراجة وهي صغيرة. كان حادثًا كبيرًا، نامت هي وجدِّي في المستشفى لأسابيع، انقلبت بهما الدراجة، وقعت أمي على الأرض، ووقع جدِّي فوقها وفوقه الدراجة، تلقَّى هو الصدمة الكبيرة وهي خرجت بهذا الجرح، وكسر في قفصها الصدري. انغرست زجاجة كانت في الشارع في يدي، وقطَّبوا الجرح بثماني غرز. كنت صغيرة، لكنني أتذكَّر الألم الذي شعرت به. أتذكَّر بكاء والدي، وصوت سيارة الإسعاف. سمعنا طرقًا على الباب، تفضَّل علا صوت أمي، توقّف الزائر عند الباب برهة.

- تعالَ شاهين، كيف أنت؟

- بخير شكرًا لك.

- اسمح لي لم أرغب بأن نتكلَّم في الممر، لهذا طلبت منك الحضور إلى هنا.

- لا مشكلة.

- هل لديك مشكلة في إعطائي رقم هاتفك؟ احتجت الوصول إليك في العيد ولم أعرف.

- ...

- لا تتحرَّج منّي، أنا مثل أمك، إن كنت لا تريد لا مشكلة.

- لا لا خذي رقمي.

لقنَّها الرقم ثم سألها عمّا كانت تريده منه في العيد.

- كنت أريد إرسال لحم إلى بيتكم مع السائق.

- أرجوك لا حاجة لذلك، ثم إنني أسكن وحدي. وقلّما أطهو في البيت.

- سأرسل إليك طعامًا مطبوخًا إذن.

- أرجوك سيدتي.

- سيدتي؟ اسمي أم ريما. وسأرسل لك طعامًا. لا عجب إنك نحيل.

- أرجوك لا تفعلي.

رنَّ هاتف شاهين لينقذه من الموقف المحرج الذي وضعته فيه أمي. اعتذر منها وخرج. آه يا أمي، كرمك هذا يحرج الناس، ويبعدهم عنك. ماذا تريدين من الرجل. وتقول له نحيل أيضًا. كنا سنتجادل بسبب هذا الموقف، كما فعلنا في مواقف مشابهة كثيرة.

- مساكين يا ريما، يعني شفتي هذا الولد؟ يعمل ليل نهار وفي النهاية يعود إلى البيت جائعًا.

- أمي لا أحد يموت جوعًا في بلادنا، ثم هو يعمل ولديه راتب يمكنه أن يأكل ما يشاء. اتركيه وشأنه يا أمي.

- لن أسمع كلامك، أنت لا شأن لك بي. سأرسل له الطعام.

ترسل الطعام والكسوة وحتى الأواني الجديدة حين تعرف أن أحدهم انتقل إلى منزل جديد. تقول الغسالة عليَّ، الثلاجة هدية مني. غرفة النوم هدية مني ومن ريما. يسعدني أن أفعل هذا يا ريما، يسعدني أن أسعد الناس وأساعدهم. أنت لا تعرفين كم حياة البعض صعبة. أعرف يا أمي وأعرف أن كثيرًا من الناس يستغلونك، يستغلون هذه الطيبة وهذا الكرم. يعرفون أنها لن تردَّهم. يجلبون أوراقًا وتقارير طبية ويقولون إنهم بحاجة للسفر العاجل، فتعطيهم المال من أجل التذاكر. تعينهم على الذهاب لأداء العمرة والحج، تسهم في مصاريف زواج أبنائهم وبناتهم. تُخصِّص رواتب شهرية تبعثها لهم. وإن تأخَّرت لبضعة أيام، تنهال عليها الاتصالات، وبعضهم يلومها على تأخُّرها. ما عليه ما عليه يا ريما، الله مسخِّرني لهم. مساكين، كفى الله أبوك النار. كلّه من خيره وكله أنويه صدقة عنه. لن تسمع كلامي، وستفعل ما تراه صحيحًا، ما تراه واجبًا، الناس للناس. أشفقت على شاهين، لا بدَّ من أنه ندم على إعطائها رقم هاتفه. ستندم يا شاهين، كُنْ على يقين.

شاهين

لن نكسب معركتنا بمقدار ما نقتل من خصومنا، لكن بمقدار ما نقتل في نفوسنا الرغبة بالقتل.

- غاندي

"اجتمعت الغربان من كل مكان بعد الجريمة التي شهدتها، وتحدَّثت بلغتها الخاصة عمّا أصاب هابيل. لم يكن هنالك شهود غير الغربان، ولا أحد يعرف ما حدث مفصّلًا غير الربّ العلي في السماوات. طارت الغربان مبتعدة عن مسرح الجريمة وهي تنعب قائلة لقابيل: ماذا فعلت بأخيك هابيل، ما هذا الجرم الذي اقترفته يداك؟ بكى قابيل ندمًا وحزنًا على أخيه الذي أزهق روحه بيديه. فأغضب ربه، وأغضب والده آدم".

حتى اللحظة لم أخبركم شيئًا عن والدي، ولعلكم فهمتم أنه كان ميسور الحال، وقد ترك لي من المال والعقارات ما يكفيني للعيش سنوات طويلة، من دون الحاجة إلى العمل. لكنني لست من الرجال الذين يحبون الإنفاق من الأموال التي يرثونها من آبائهم، ولا يفعلون شيئًا في حياتهم. أتذكَّر وجهه مثل الخيالات التي نراها في أحلام يقظتنا، لا هي حقيقة، ولا هي وهم. ووجهه الخيال الذي أتذكَّره وكنت أراه، لا يشبه وجهه الذي في الصور الملصقة في ألبوم الشمطاء الكبير. كانت تصفُّ الصور بعناية، صور لجدها ووالدها، وصور كثيرة لها غير ملوّنة، التقطت خلال رحلتها إلى الهند، صور أخرى في لندن. هنالك صور لعالية وزوجها، بعضها من يوم عرسهما. بدت عالية صغيرة بالقرب من زوجها الضخم. ولا بدَّ من أنها كسبت عشرات الكيلوات لتصبح ضخمة مثله بعد عيشها معه في بيت واحد لسنوات.

كل تلك الصور، لأبي ولأفراد عائلته الذين لم أحب أحدًا منهم بقيت مطبوعة في ذاكرتي، فذلك الألبوم الكبير كان تسليتي في بيت الشمطاء وهي كانت تتركني أتصفَّحه من دون أن تصرخ عليَّ، أو تقطع لحظات تقليبي صفحاته السميكة؛ لأقتل حشرة أو أقتلع عين قطة مستمتعة باستعراض ما أنجزته من صف الصور وإلصاقها في الألبوم الذي تعدُّه تحفتها الفنية وإرثها الثمين.

أتذكَّر أبي حين زارنا مرة محمَّلًا بالهدايا، جلب لي سيارة تعمل بجهاز تحكُّم. تدور وتقفز وتصدر صوتًا صاخبًا. شغَّلها وبقي يلعب بها مستمتعًا كأنه طفل، ثم ناولني الجهاز، والشمطاء تراقبنا باستياء. عرفت أنها ستأخذها مني وستمنعني من اللعب بها. لذلك خرجت إلى الحوش، وتمنَّيت أن يطول بقاءه معها؛ لأتمكَّن من اللعب بالسيارة. قبل رحيله بعد الغداء، ضمَّني إلى صدره ومضى. وتلك كانت المرة الأخيرة التي رأيته فيها. ولست متأكدًا من أنه زارنا في ذلك اليوم أم أنه حلم يقظة رأيته في صحوي. لقد كانت الشمطاء تحبُّ والدي كثيرًا، لأنها حين وصلها خبر وفاته فقدت وعيها، وبقيت تبكيه أيامًا متواصلة. وحين كبرت وسمعت من عالية عبارة: ليس أغلى من الولد غير ولد الولد. تلك التي كانت تقولها لصديقاتها اللاتي رزقن بأحفاد. كنت أتساءل عن كره الشمطاء لي، وهي المفتونة بوالدي. لقد كانت تبغض أمي، ولم تدَّخر جهدًا في تذكيري بأنني ابن حسنوه روزنة.

تناهى إلى سمعي صوت تنبيه شاحنة تعود إلى الخلف، فعرفت أن سائق السيدة أم ريما وصل. فتحت الباب، فترجَّل رجلان، السائق يساعده رجل آخر، أنزلوا من الشاحنة أكياسًا كبيرة من الحبوب والسكر وكراتين من المعلبات والزيت وأشياء كثيرة قرأت أسماءها على الأكياس والكراتين. انتابني ضيق كبير، وأنا أفكِّر في الطريقة التي سأوزع فيها المؤونة التي أرسلتها السيدة. لكن برودة كانت تسري في صدري كلّما تذكَّرت وجهها وصوتها، وهي تصرُّ على أن تبعث لي سائقها. من المقعد الأمامي تناول السائق صحنًا مغلّفًا بورق قصدير، وناولني إياه قائلًا: ماما جواهر سَوّي سلام.

جواهر! كم يليق بها الاسم، تركا الأكياس والكراتين عند مدخل غرفتي وانطلقا بالشاحنة. وجدتني ممسكًا بالصحن مشدوهًا أنظر نحو الكومة التي أمامي. أعادتني الذكرى إلى الشمطاء، كل شهر كانت تصلها بيك أب محملة بالروشن، تفتح بنفسها باب البخّار، وبعد أن يكدِّس العمال الكراتين والأكياس بداخله، تقفل الباب وتربط المفتاح في طرف شيلتها. نفس الطرف الذي ضربتني به مرارًا، ولم أكن أعرف لماذا يؤلم بشدَّة طرف شيلتها، حتى رأيتها تحلّ العقدة وتربطها حول المفتاح. استلتني أم حمزة من الذكرى الثقيلة، وهي تصرخ مهدِّدة: واللهِ.. لأنا قاتلاك. واللهِ.. مش حخلي النهارده يعدي. لا أحد يردّ عليها أو يطلب منها أن تصمت. إنها نوبة جديدة. مثل كل النوبات التي تزورها ظهرًا، وتمتد حتى مغيب الشمس.

خرج حمزة من البيت مثل كل مرة. استوقفته الكومة أمام غرفتي، ودفعه الفضول للسير نحوي، وأنا لا أزال على وقفتي. ممسكًا بالصحن محدِّقًا في الأكياس والكراتين. رفست باب الغرفة، ووضعت الصحن على الطاولة وعدت إلى الخارج. أشرت إلى حمزة بيدي، فجاءني يركض. سألته: هل يمكنك أن تحمل هذا الكيس؟ صفّر مرتين وخرج صبيان من أصدقائه من حيث لا أدري. كان يجدر بي تقسيم الكيس الكبير إلى أكياس صغيرة لتوزيعها على أكبر عدد من الناس. لكن لا رغبة ولا وقت لديَّ. ولتغفر لي السيدة جواهر. أعطيتهم كيس أرز وكيس طحين وثلاثة أكياس سكر وثلاث زجاجات من الزيت. ألن تعطينا من البقوليات؟ والصلصة؟ سأل أحد الصبية.

وكزه حمزة في كتفه. قلت: خذوا ما تريدون. انقضَّ الصبي على الكراتين يفتحها، ووضع ثلاث علب من الفول، وثلاثًا من الصلصة في جلابيته، بعد أن صنع منها كيسًا ربطه عند بطنه. حذا الصبي الآخر حذوه. أما حمزة فلم يأخذ شيئًا من الكراتين. صرخ بهما: هيا ساعداني في حمل كيس الأرز والطحين، وإلّا فلن أعطيكما شيئًا منهما. حملا معه كيس الأرز، ووضعاه عند الباب، ثم عاد الثلاثة ليأخذوا الكيس الآخر وزجاجات الزيت. شكرني حمزة ثم انشغل الثلاثة في تقسيم الأرز والطحين بينهم. سحبت كيسًا من الأرز، وكيسًا من الطحين إلى الداخل، وتناولت زجاجتي زيت وعلبًا من الفول والصلصة

وكرتون معكرونة، وتركتها في الغرفة. جلبت أكياسًا ووزعت فيها علب البقوليات والصلصة والمعكرونة بالتساوي، صنعت منها خمس حصص. وكان هنالك ثلاثة أكياس من الأرز وثلاثة من الطحين. اضطررت إلى البقاء خارج الغرفة أحرس الأكياس، وأرجو مرور أحد لأعطيه منها. لم يمرّ أحد حتى انفضَّ المصلون من صلاة العصر. أول المارين كانا المراهقين اللذين تجادلا عند نافذتي. استوقفتهما فاقتربا بحذر. خذا هذين الكيسين إلى البيت. نظرا في الكيسين وابتسما. كان أحدهما ينظر إلى كيس الطحين.

- كيف ستحمله؟

ارتبك الصبي ثم قال: سأنادي أخي الكبير.

أشرت له بيدي أن اذهب، ركض الصبي ثم عاد بعد دقائق يتبعه شاب ضخم. ألقى التحيَّة وحمل الكيس على ظهره كأنه يحمل صرَّة خفيفة. لمحت العمال الذين سبق أن رأيتهم يصنعون أرغفة خبز كبيرة، ويخبزونها على علبة صفيح ضخمة، يضعون الفحم بداخلها، ويتركون الرغيف يتحمَّر على الجهة العلوية. أشرت لهم بيدي، فتقدَّموا نحوي. هل تريدون طحينًا؟ تهلَّلت وجوههم وقال كبيرهم: جزاك الله خيرًا. حمل الأصغر سنًّا والأضخم جسمًا الكيس على ظهره كما فعل شقيق الصبي. أعطيته زجاجة زيت وكيسًا من الأكياس التي تحوي الصلصة والمعكرونة. انتابني الملل وأنا أترقَّب. أدخلت الأكياس الصغيرة إلى الغرفة وأقفلت الباب ثم مشيت إلى البقالة، وناديت زمان. مشى معي إلى البيت فوجدت سيدة تنتظرني مع صبي صغير.

- هل لديك كيس أرز لي يا ولدي؟ وعينها على الكيسين المتبقيين.

- أين تسكنين؟

- هنا خلف بيتك. تمعَّنت في الصبي فتذكَّرت البيت.

- سأجلبه لك في سيارتي بعد قليل.

- شكرًا لك يا ولدي.

مضت غير واثقة في أنني سأوصل الكيس إليها. أعطيت زمان كيس الأرز الأخير، وطلبت منه أن يساعدني في وضع الكيس الآخر، والأكياس التي عزلتها وأدخلتها إلى الغرفة في السيارة. فكَّرت في إعطائه الصحن المغلّف لكنني تراجعت. سأتناول الطعام الذي أرسلته لي جواهر وحدي. ودَّعت زمان وأخذت كيس الأرز إلى جارتي، وقدت إلى بيت مرسي. أطلقت التنبيه أكثر من مرة، لكنه لم يخرج من غرفته. أنزلت الأكياس، وكتبت له رسالة على الهاتف، أخبره بأني جلبت بعض الأشياء وتركتها خارج بيته. اتصل بإلحاح بعد رسالتي، لكنني تجاهلت اتصالاته. عدت إلى البيت، وكشفت عن الصحن، أرز ولحم وقطع بطاطا مقلية، والكثير من المكسرات المحمَّرة مع البصل. طبق كانت تصنعه عالية في المناسبات. لم أتناوله منذ سنوات طويلة. جلبت ملعقة وشرعت في الأكل. كان وجه جواهر حاضرًا، تجلس قبالتي، وتراقب وجهي، وأنا أتناول طبخ بيتها، وأملأ بطني بالحبِّ الذي بعثته لي هذا اليوم. وشعرت باليأس؛ لأنني لا أملك رقم هاتفها، فهي حين أخذت رقمي ذلك اليوم، لم تتصل بي، بل اكتفت بتخزين الرقم في هاتفها، ثم أعطته لسائقها؛ ليقوم هو بالاتصال بي قبل قدومه.

ريما

هذه هي العائلة بالنسبة إليك. لا يمكن العيش معهم، لا يمكن قتلهم.

- هولي بلاك

ودَّعتني عند العاشرة، كل ليلة تودِّعني في الوقت نفسه، أتبعها بقلبي، أَعُدُّ خطواتها وهي متوجهة إلى باب الغرفة. ستصل إلى السيارة وتركب خلف السائق. ستظلُّ صامتة حتى تصل إلى البيت، تخلع شيلتها وعباءتها وتتناول منامة من درج مناماتها، قرب خزانة الملابس الكبيرة، ثم تدخل الحمام. تنظر إلى المرآة. تنظر عميقًا في عينيها، تفتح صنبور المياه، تتركه ينساب، تغسل يديها ثم وجهها، تغسله مرارًا، تتوضأ. وتخلع جلابيتها، ترميها في سلَّة الملابس. وتضع منامتها. تحرِّر شعرها من المشبك، تدخل أصابعها فيه وتحك فروة رأسها، تلبس رداء الصلاة، وتكبّر. رائحتها هنا باقية تفوح قرب أنفي، دهن العود الخافت خلف أذنيها، والبخور المتغلغل في عباءتها، بعد مرات متكرِّرة من تشرُّبها بدخان المعمول والعود المعطِّر وهي معلَّقة في الدولاب مع باقي العباءات والجلابيات المخوّرة.

- لماذا رائحة خزانة ملابسي مختلفة عن رائحة خزانة ملابسك؟

- هذا طبيعي. ثم أنت بنت صغيرة، حين تكبرين وتتزوَّجين سأعلِّمك كيف تجعلين خزانة ملابسك تفوح مثل خزائن الحريم.

- لكنني أحبُّ هذه الرائحة. أريد أن تكون رائحة ثيابي جميلة مثل رائحتك.

- رائحتك جميلة وتشبهك ريموه، رائحة البنات البريئات الحلوات.

أخذتُ Armand Basi من غرفتها، كنتُ وقتها في الإعدادية، كل البنات في الصف سألنني عن عطري، بعضهن اعتقدن أنها رائحة شامبو، لأنني عطرت شعري يومها، كما تفعل هي حين ترشُّ العطر على رأسها. قلت هو عطر أمي. ثم صار هذا العطر عطري. وجدنا مجموعة كاملة منه على الإنترنت، صابون استحمام ومزيل عرق ومرطِّب جسم. صار العطر لا يفارق غرفتي وحقيبة يدي، تعرفني صديقاتي به، وأشعر بالحنين إن مرَّت أيام ولم أضعه، أو أشمّ رائحته. ها أنا ذا نائمة هنا على سرير، لا أعرف متى سأتركه، سرير جئت إليه برغبتي، في لحظة طيش وغباء. في لحظة اندفاع وجنون، لم تسر الأمور كما ظننت. بل ساءت وتعقّدت وأصبحت حياتي من صعبة إلى أصعب. حُكِمنا أنا وأمي التي أحبها وأخاف منها بالبقاء في غرفة واحدة، أنا على حافة الموت، وهي على حافة الحياة. لا أنا أصحو لتعود إلى حياتها التي عطَّلتها من أجلي، ولا أموت لتلحق بي، كما سمعتها تقول لحفصة. باقيتان نواجه مصيرًا، لا أحد يعرف نهايته. لكن هل يمكن أن نحبِّ ونخاف في الوقت نفسه؟ هذا هو حبِّي لها. حبٌّ وخوف، غيرة حينًا وغضب أحيانًا. هي تحبُّني بشدَّة، تخاف عليَّ وتغار وتغضب من أجلي. أنا أحبُّها وأخاف منها وعليها.

غرت منها كثيرًا، غرت لأنها رأت أبي، وعاشت معه، أحبها وأحبته، وما زالت حتى اليوم تكتب له، تزور قبره وتكلّمه. تعرف وجهه، تعرف رائحته، تعرف صوته. هي أيضًا عرفت والدها. أحبها كثيرًا ودلَّلها، ضمَّها وحملها، واشترى لها الهدايا والحلوى. أنا لم يضمَّني رجل، ولم يحملني أحد إلى الدكان؛ ليشتري لي الحلوى. يخيفني الرجال وأشعر بالارتباك في وجودهم. ولا أظنني سأعرف حين يخفق قلبي في حضور أحدهم، ما إذا كانت الخفقة حبًّا أو خوفًا أو ارتباكًا. غاضبة منها؛ لأنها لم تقطع الحبل السرِّي بيني وبينها، لأنها علَّمتني الطيران وقصَّت جناحي، لأنها أحبَّتني كثيرًا، ولم أعرف أنا كيف أحبّها. لأنني في لحظة جنون قرَّرت أن أحلِّق بجناحي المقصوصين، لمجرّد الرغبة في الهرب منها. افعلي شيئًا مجنونًا.

تذكَّرت نصيحة هادي حين أخبرته أنني بصعوبة أستطيع التفكير في أمر يبهجني. ربما قصد بالشيء المجنون: قصة شعر قصيرة، القفز من طائرة،

الصراخ في مكان عام أو مواجهتها بأنني تعيسة. الشيء المجنون الذي قمت به هو أنني دُست على البنزين وزدت من سرعة السيارة حتى المئة وثمانين، تعالى الأدرينالين في دمي، وخفق قلبي بجنون. كان الشارع خاليًا، أقسم إنه كان خاليًا، لكن سيارة خرجت أمامي فخشيت الاصطدام بها، وضعت قدمي على الفرامل، فاختلَّ توازن السيارة، ولا أذكر ما الذي حدث بعدها.

دخلت الممرِّضة إلى غرفتي المظلمة. عبثت بأحد الأجهزة على الضوء القادم من الممرِّ، فعلا صوت مزعج من الجهاز، بدت مستاءة وهي تجري اتصالًا من هاتفها.

- You are crazy, I will call Shahin.

خرجت لدقائق ثم عادت، أسكتت الجهاز بأن فصلته من القابس. لو كانت أمي هنا، لمنعتها وتقدّمت بشكوى ضد تلك الممرِّضة المهملة. لكن ربما أعطاها شاهين الأمر لتفصل الجهاز. استسلمت للنوم، وأغمضت عين روحي دقائق قليلة. انفتح الباب وأشعل أحدهم النور. تسلَّلت إلى أنفي رائحة عطر رجالي، ممزوجة بتبغ خفيف. صرت حساسة للروائح منذ الحادث. إنه شاهين، لو عرفت أمي أنك تدخّن ستغضب منك. سعل مرتين، وهو يضغط على أزرار الجهاز. بعد أن أعاد تشغيله من القابس. عاد الجهاز إلى العمل. بقي لوَهَلة لا يتحرَّك من مكانه. في المكان نفسه قريبًا مني، شعرت برائحته تقترب، تعالت دقات قلبي، لماذا يقف هكذا؟ ما الذي يفعله؟ هل تراه ينظر إلى وجهي؟ يراقب حركة أنفاسي؟ ربما هو سارح في أمر آخر لا علاقة له بي، لعله يدوِّن شيئًا، يلتقط صورة للجهاز الذي أصلحه للتو، أو يرسل رسالة على هاتفه. سمعت صوتًا يصدر من هاتفه، صوت أغنية تصدح من السماعة. أغنية أعرفها، وأحبُّها:

Strumming my pain with her fingers

Singing my life with her words

Killing me softly with her song

Telling my whole life with her words

Killing me softly with her song

بهدوء ترك شاهين الغرفة بعد أن أطفأ الأنوار، أظنُّ رائحته بقيت عالقة في الجو، العطر الرجالي والتبغ، انساب لحن الأغنية في رأسي، تذكَّرت كلماتها وبقيت غير قادرة على النوم. "تداعب أوتار وجعي بأصابعها، وتغنِّي حياتي بكلماتها، تقتلني بنعومة بأغنياتها". كم هو عاشق هذا الشاهين. غبطته، وتخيَّلت وجه حبيبته التي تقتله برقَّة بأغنياتها. لو أفتح عينيَّ وأرى وجهه. تذكَّرت حين انتابتني رغبة في رؤية وجه هادي بعد أن أنهيت قراءة الرواية التي كتب لي عليها إهداء في معرض الكتاب. كل صوره على الإنترنت أجمل من شكله الحقيقي.

- الكاميرا تحبُّ وجهك كتبت له مرة.

- ماذا تقصدين؟ هل أنا دميم في الواقع؟

- لست دميمًا لكنك في الصور مختلف.

- شكرًا على الإطراء. غاب بعدها لأيام ثم عاد. بدأ رسالته بـ صباح الدمامة أتبعها بوجه يضحك. اعتذرت منه وشرحت له بأنني عادة أظهر أقلُّ جمالًا في الصور، لكن هو الكاميرا تحبُّه وتظهره وسيمًا. ظننتني أحببت هادي سعيد في وقت من أوقات حياتي، ثم اكتشفت أنه كان مجرّد فضول وتعلّق وصداقة إلكترونية فحسب، والخفقات التي كانت تتسارع والسعادة التي كانت تعتريني حين تصلني رسالة منه ما هي إلّا مشاعر الإثارة لعمل شيء مختلف وممنوع.

شاهين شيء آخر. شاهين قريب وموجود، أشمّ رائحته وأسمع صوته وأشعر بخطواته. لا أعرف عنه شيئًا سوى أنه عاشق. سهرت طويلًا في سهري، وانفتحت عينا روحي إلى أعمق من روحي، إلى أعماق أرواح بعيدة كل البعد عني. ولا أعرف كيف حدث هذا، لكنني شعرت بدموع تسيل من عينيَّ، استمرَّت في الهطول حتى أغرقتني ونمت.

شاهين

إن الشعور المرتبط بالسوداوية هو الحداد، أي التوق لشيء مفقود. لذا، لا بدَّ من أن الأمر في السوداوية يتعلق بالفقدان، فقدان في الحياة الغرائزية.

- فرويد

حين أدخل الغرفة 106، يقع بصري على شعر المريضة الممددة على السرير، أسود فاحم طويل، يخرج من غطاء رأسها القطني الأبيض، يشبه الأغطية التي كانت تضعها عمَّتي عالية. هي أيضًا شعرها فاحم وطويل. مثل العجوز الشمطاء في شبابها. تسرِّح شعرها بعد أن تضع عليه الزيت وتفرقه من المنتصف بالمشط نفسه. ثم تصنع جديلتين تضمهما في نهايتهما بجديلة صغيرة. تبقى الجديلة الصغيرة خارج شيلتها كل الوقت، فشعرها يمتد حتى ركبتيها. في أواخر أيامها صار شعرها خفيفًا والجديلتين السميكتين أصبحتا بسمك إصبع. عالية احتفظت بشعرها الكثيف الأسود الفاحم كانت ترفعه في كعكة وتثبِّته بدبابيس سوداء. غضضت بصري عن شعر الفتاة. وأكملت عملي وصورة الشمطاء بجدائلها الرفيعة لا تفارق رأسي. أترك الغرفة وأعود إلى مكتبي، أشعر فجأة بكآبة. أين أنتِ يا جواهر؟ نسيتُ أنك ترحلين عند العاشرة. تعودين إلى البيت الذي ينتظرك فيه زوج يحبك، وكيف لرجل ألّا يحبك؟ تعودين إلى بيتك الكبير. وخدمك وحشمك، تعودين إلى ملابسك الحريرية، وعطورك الغالية. ترحلين كل ليلة عند العاشرة، وتتركينني للسهر والعمل وطنين الأجهزة. هل نمت؟ هل دخلت في حضنه؟ كيف يمكنك النوم وابنتك تنام هنا؟ لا لست ألومك. في الغد ستأتين، وتبقين معها حتى المساء. نسيت أن أخبرك أنني أحببتُ طبخ بيتكم. أحببت طبخ خادمتك. تمنيت لو أنني آكل من طبخك

أنت، على طاولة تجمعني بك. لكن كيف؟ كيف وأنت البعيدة، كيف وأنت السيدة جواهر.

- لماذا لا تقتلها؟ أرعبني الصوت، اقتلها يا ابن حسنوه روزنة، اقتلها ما دمت غير قادر على امتلاكها.

- اصمتي.

- اقتلها شاهينوه، قبل أن تمدَّ جذورها فيك، انظر كيف صارت ترسل لك الأشياء، وتجبرك على توزيعها، منذ متى وأنت مهتم بالعمل الخيري؟ كم ساعة تعطلت بالأمس من أجلها؟

- لا شأن لك.

- كم من الوقت ستسرق منك لتشغلك عندها مندوبًا، توزِّع زكاة مالها وأكياس الطعام الفائض في بخاخيرها؟

- لا شأن لك، اصمتي.

- اقتلها قلت لك، اقتلها، أم أنك صرت تعشقها يا مخبول.

لطمت كوب الشاي الذي أعددته لتوِّي، فانسكب وتحطَّم، صرخت بهستيرية: اصمتي.

لحسن حظِّي كان باب المكتب مغلقًا ولا يوجد موظفون كثر في وردية الليل. لم يسمع أحد صرختي، ولا صوت تحطُّم الكوب. اختفى وجه الشمطاء ببرقعها المائل من رأسي، وغاب صوت ضحكها الساخر. وضعت مناديل ورقية على بقعة الشاي، وجمعت قطع الكوب المحطَّم، ورميتها في سلَّة المهملات أسفل مكتبي. عند السادسة تركت المستشفى، سرت بخطوات ثقيلة نحو السيارة. على الرغم من تعبي لم أكن أشعر بالنعاس، فَقُدْتُ نحو بيت مرسي، إنه يصحو باكرًا وفي هذا الوقت يتناول فطوره. وقف حين رأى سيارتي تقترب من مدخل بيته، وكان يفترش الأرض ويغمس قطعة خبز في صحن عسل

بالقشطة. قرقر بطني من الجوع، وأنا أتخيّل أصناف الطعام التي في الصينية الموضوعة على الأرض.

- أهلًا يا سي شاهين. إتفضَّل إتفضَّل، دا إنته حماتك بتحبِّك.

- كيف حالك؟

- كويس الحمد لله، أصب لك شاي؟ وتناول إبريق الشاي، ولم ينتظر أن أجيبه، فسكب الشاي في كوب، وناولني إياه. تحب أجيب لك طاولة من جوا، ونقعد ناكل فوق؟ أصلي أنا متعوِّد آكل على الأرض.

- لا تتكلَّف مرسي. وجلست على الأرض بعد أن خلعت حذائي. تناول رغيف خبز، ووضعه أمامي.

- تفضَّل، افطر زمانك ميِّت من الجوع. معلش يعني الفطار مش قد مقامك، ومتشكر على الحاجة اللي سبتها ليا من يومين. العيش ده من الدقيق اللي جبته. نظرت إلى الرغيف وأخذت قطعة منه وأكلتها، تذكَّرت جواهر ورائحة الغرفة 106. عند الأكل مرسي يكون مشغولًا ببطنه، ولا يتحدَّث كثيرًا، وتعجَّبت من نفسي، وأنا أسمع صوت مضغه الطعام، ورشفه الشاي، مع صوته المختنق بالبيض والخبز وحبّات الزيتون، وهو يشجِّعني على الأكل كما يفعل مع أولاده الصغار. فطن مرسي لشرودي وصمتي، حتى إنه خفض من صوت المضغ والرشفات المزعجة. حاول تناول طعامه بهدوء، وأنا اكتفيت بتغميس الخبز في العسل، أو تناوله جافًّا مع الشاي الكشري. أصبح الجو حارًّا حين ارتفعت الشمس، وصارت حرارتها متوجِّهة نحو مكان جلوسنا عند مدخل منزل مرسي. ناولني قنينة ماء باردة من الثلاجة التي يضع عليها قفلًا. ثم سألني:

- مش على بعضك يا سي شاهين. في حاجة لا سمح الله؟

- لا أنا بخير، ربما أحتاج إلى النوم.

- ما تكونش عشقان. وابتسم ابتسامة عريضة. وجدتني أبتسم لكلامه. اسمع يا شاهين، أنا بنصحك، أوعى تحبّ وتعشق، الستات في الزمن ده

مالهاش في الحب. ما فيش ست بتحبّ، دي لو تفضَّلت عليك هتقولك إنت عاجبني.

- أضحكتني يا مرسي، طلعت تعرف النساء.

- أمال إيه؟ ما تنخدعش بقعدتي هنا بين النخل والشجر. أنا راجل بعرف الست من وشها. محسوبك جرَّب الزواج ثلاث مرات، وكل مرة كنت أنا اللي بنطس على عيني وبحبّ، وهي بتقولك: عاجبني يا سي مرسي. عاجبني كلامك، مرتاحة معاك، متطمنة بقربك. طب فين بحبّك؟ فين يا حبيبي؟ ما فيش، حتى الكلمة بقوا بيبخلوا بيها علينا. ابتسمت لكلامه ونهضت متوجهًا إلى سيارتي. أشوفك بخير، نام وارتاح يا صاحبي وبلاش عشق وحب.

نظرتُ إليه من المرآة الأمامية، وهو يقفل باب بيته ويتناول محراثه، متوجهًا إلى النخل. تذكَّرت نخل مانع، قطعة صغيرة من الأرض، مزروعة بثلاثين نخلة وخمس أشجار مانجو وتينتين وثلاثة فرصادات. يرويها فلج صغير متفرِّع إلى أنحاء النخل. مفصولة بجدار عن أرض ممتدة لفراسخ، بها أكثر من مئتي نخلة، وأشجار كثيرة. ذلك نخل أخي الكبير. وهذا نخلي أنا قال مشيرًا إلى القطعة التي نقف في منتصفها. قالها وهو يغصُّ بكلماته. ثم صرخ: شُبير، شُبير. حين لمح العامل يتمشى قرب التينة، ركض العامل نحونا، ولعب بشعري بحركة سريعة:

- ما شاء الله، هذا بجا مال أنت أرباب؟

- هيه بجا مال أنا. شو هذا شغل شبير؟ كله مكان في كجرا. هذا شغل ما في مضبوط. كله يسوّي صفاي. اليوم يسوّي صفاي. أنا بكرة يجي، إذا ما في نظيف، يقص معاش.

- لا لا أرباب. اليوم إن شاء الله يجيب نفرات ويسوي كامل صفاي أنت ما في زيادة تفكير. ثم أخرج من جيبه تينة سوداء، وناولني إياها. أخذها مانع منه، ومسحها في كندورته، ثم ناولني إياها. كلها، حلوة. قضمت قضمة فذابت في فمي. كانت تلك المرة الأولى التي أشعر فيها بالامتنان نحو زوج عمَّتي، لقد قال إنني ابنه "بجا مال أنا"، الشمطاء كانت تتبرَّأ مني في كل مرة، لا تريد

أن تعترف بأنني من دمها، وابن شقيقها المفضّل. أسمتني ولد حسنوه روزنة، وحين تأتي جاراتها لزيارتها كانت تقول إنني يتيم، وهي تربيني من أجل الثواب. لم تشعرني يومًا بأنها متعاطفة مع فقداني أمي صغيرًا.

أتذكَّر شعر ريما، وأتخيّل والدتها، لا بدَّ من أن ريما ورثت الشعر الجميل من أمها. لهما نفس الوجه والملامح. هي لا تجدِّله مثل الشمطاء، قد تكون ترفعه بدبابيس مثل عالية، وحين تدخل إلى غرفتها تزيلها واحدة تلو الأخرى، لينسدل الشعر على كتفيها، ويغطي ظهرها. تعرفون؟ لو قالت إنني أعجبها لكفاني، الإعجاب هو بداية الحب، أنا أعجبت بها قبل أن أحبها، أعجبت برائحتها، بصوتها، بطريقة كلامها، وجلستها، بخوفها وقلقها على ابنتها. بطيبتها واهتمامها بالناس وبي. ليتها تقول لي تعجبني يا شاهين، ليتها تقول إنها مرتاحة معي مطمئنة بقربي. لا أريد أن تقول لي حبيبي، لا أحد قالها لي من قبل. لماذا سأنتظرها منها. أريد فقط أن تنظر إليَّ بعين الإعجاب التي ستصير عين حبّ ورضا.

ريما

كل فتاة قادرة على القتل إذا جرحتها.

- كادي غروفز

ما ميزتي يا الله؟ لطالما تساءلت بيني وبين نفسي، موجِّهة وجهي إلى السماء، محدِّثة ربي. ما ميزتي يا الله؟ منذ صغري وأمي تقول إنني مميَّزة ومختلفة وجميلة، وهي فخورة بي. لكن بماذا عساها تفتخر؟ في المدرسة كنت أحصل على علامات جيدة، لكنني لم أحرز المركز الأول في الصف. حاولت كثيرًا، حاولت من أجلها، هي التي أرتني شهادات التقدير التي حصلت عليها في كل سنوات دراستها المدرسية. المركز المتقدِّم الذي أحرزته أنني كنت الرابعة على مستوى صفِّي. كان ذلك أمرًا محبطًا بالنسبة إليَّ. حضرت صفوف تقوية ودروسًا خصوصية مع معلمة كانت تأتي إلى بيتنا ثلاث مرات في الأسبوع. وفي فترة الامتحانات، حلَّت معي عشر نماذج، ودرَّبتني على طريقة الحل النموذجية. مع هذا لم أحصل على شهادة تقدير وتكريم في طابور الصباح. المعلمات أحببنني، لكنه كان حبًّا زائفًا وقائمًا على المصلحة؛ لأن أمي كانت تغدق عليهنَّ الهدايا وتقدِّم التبرُّعات للمدرسة. لهذا كنت المدلَّلة في المدرسة والمفضَّلة لديهنَّ. كرهتني زميلاتي، وغرن مني، كانت كتبي تُسرَق ودفاتري تُتلَف ولا أعرف الفاعلة. كلهنَّ اشتركن في كرهي، واتفقن على أنني غير جديرة بصداقتهنَّ. أهملت دروسي عمدًا، حتى أستفزَّ المعلمات، وصرت أتعامل بلامبالاة مع عتابهنَّ ونصائحهنَّ. حين عرفت أمي قالت إنها تفهمني وتفهم أنني أمرُّ بمرحلة عمرية حرجة، وإنها مهما حصل، ومهما تدنَّت علاماتي ستظلُّ فخورة بي، ومؤمنة بذكائي وتميُّزي. عندها شجَّعتني على الكتابة، أهدتني دفترًا وأخبرتني أن الكتابة هي التي أنقذتها دومًا. أكتبي كل ما يحزنك يا

ريما، دوّنيه هنا واحتفظي به، إن شئت عودي لقراءته لتعرفي نفسك أكثر، وتفهمي مشاعرك، أو انسي ما كتبته، واقلبي الصفحة، واكتبي المزيد. أمي لم تكن تسمعني، والدي كان يحبُّني، لكنني لم أجرؤ يومًا على الكلام معه عما يختلج في صدري. وحتى حين أحببت والدك، لم أكن لأخبر أحدًا عن تلك المشاعر التي أخفيتها عن الجميع. كتبت ودعوت وصلَّيت سنوات طويلة، حتى جاء وأخذني.

وسمعت نصيحتها وكتبت، كلّما شعرت بالحزن أو الضيق أو الغضب كتبت. لم يفارقني ذلك الدفتر. ثم صرت أكتب على حاسوبي. الحاسوب آمَنُ وأكثر خصوصية. وهي احترمت خصوصيتي، بل كانت تراقبني بحبٍّ، وهي تراني أكتب كما تفعل هي. ثم قرَّرت كتابة روايتي، وهنا حدث الصدام مع أمي. أحيانًا أتفهَّم خوفها، وأحيانًا يحيِّرني التناقض في تفكيرها. مع هذا كتبت. "إن كنت قادرًا على قتل أحدهم في خيالك فيمكنك قتله في الواقع". (وجه شرير) أرسلها لي هادي سعيد بعد أن أخبرته أنني سأجعل البطلة تقتل أختها في الرواية. كتبت ردًّا عليه: تعرف؟ جعلتني أخاف من نفسي يا هادي سعيد. أنت تعرف أنني أكتب رواية أنا بطلتها. كيف تقول لي هذا؟ أحمد الله أنه في الواقع ليست لديَّ أخت. سامحك الله.

ما كتبه لي هادي سعيد كان في الحقيقة فكرة تراودني، لأنني حين كتبت مشهد غرق شقيقتي في حوض السباحة، انتابني خوف من البلادة التي شعرت بها، وأنا أصف غرق الصغيرة في الحوض، ومراقبة أختها لها، وهي تلفظ أنفاسها من دون أن تحرِّك ساكنًا. وحتى وأنا أكتب عن اكتشاف أمي وأبي وانهيار أمي، وحملها في الإسعاف إلى المستشفى. لم أشفق عليها ولا على والدي الذي أزعم في الرواية أنني كنت أحبه حبًّا لا يوصف. ذلك الشرّ الذي تلبَّس البطلة في لحظة غرق الأخت الصغرى كان نابعًا من داخلي أنا، وليس من شخصية صنعتها، وكتبت عنها. ولعل هذا ما جعل أمي ترفض أن أكتب رواية؛ لأنها تعرف أن وجهًا مخيفًا لابنتها الوحيدة قد يظهر وينكشف بين سطور الرواية.

أمي هادئة اليوم، دخلت واقتربت مني، قبَّلتني على رأسي ومسحت على يدي، رائحة عطرها خافتة. خرجت من دون أن ترشَّ على ملابسها عطرًا، وهي التي لا تستغني عن العطور والطيب. شيء ما يشغلها. ماذا تراه يكون؟ تبتعد عني وتجلس على الكرسي، تخرج دلَّة القهوة، وتسكب فنجانًا، تتسلَّل الرائحة إلى أنفي. وأتذكَّر جلساتنا معًا وقت العصر، وصحن الرطب وملّة الحلوى. تمتزج تلك الروائح في رأسي، وأشعر برغبة في النوم على صدرها. يطرق باب الغرفة. تصيح أمي: Yes.

شاهين

مزاجي سيِّئ الليلة، ولا رغبة لي في قتل أحد.

- قيس عبد المغني

دخلت الغرفة أملًا في رؤيتها، طرقت الباب فسمعتها تقول بصوتها الدافئ: Yes، فتحت الباب وتقدّمت. بدت لي شاحبة ومتعبة، لم تبتسم لرؤيتي، أنا الذي ابتسم قلبي حين رأيت وجهها أخيرًا بعد ثلاثة أيام من الدوام الليلي. قالت كأنها للتو تعرَّفت على ملامحي: هلا شاهين، كيف أنت؟ تلعثمت في ردِّي: بخير، الله يخلّيج. أخفضت بصري، فوقع على يدها اليمنى. كانت تنزل كم ردائها لتخفي كدمة زرقاء كبيرة على ذراعها. توجهت نحو أحد الأجهزة أتفحصه، وتظاهرت بكتابة شيء على هاتفي. سمعت صوت الشمطاء: هااه شاهينوه، حركات عشاق؟ وتعالت ضحكاتها في رأسي. عدت خطوتين إلى الخلف قبل أن ألتفت نحوها، كانت تمسك بسبحتها ذات الخرزات الخضراء من دون أن تحرِّكها، وتنظر نحو النافذة بشرود. تركت الغرفة بعد أن تمتمت: مع السلامة. لكنها لم تسمعني ولم تقل شيئًا. وقادتني قدماي إلى السطح. لم تبرح عقلي صورة الكدمة على ذراعها، وتذكَّرت الشمطاء والكدمات الزرقاء الداكنة التي كانت تملأ جسدها المترهِّل. نفس الكدمات كانت على وجه أم حمزة حين جاءت سيارة الإسعاف لتأخذها فجر اليوم. أخرجت علبة السجائر من جيبي، وأشعلت عودًا، مججت دخانه، وتركته يملأ رئتي ثم نفثته، ليمتزج مع هواء شهر مايو الساخن. اكتشفت السطح منذ بداية عملي في المستشفى. هنا فقط أستطيع الانفصال عن الواقع الذي يحدث في غرف المرضى وممرَّات المستشفى ومكاتب الموظفين والأطباء. الغرفة 106 تقع قرب

المخرج المؤدِّي إلى السطح. صرت أدخِّن كثيرًا مؤخرًا، ولم يَعُد العطر الذي أرشُّه والعلكة التي أمضغها يخفيان الرائحة التي تلتصق بي.

كل أشياء زوج عمَّتي مانع كانت تفوح برائحة السجائر. حتى الكتب التي كنت أستلُّها من الرفِّ، صفحاتها كانت لها رائحة السجائر. لقد سرقت أول عود دخَّنته من علبة تعود له. سرقت عودين في الحقيقة. لففتهما في محرمة ورقية ودسستهما في جيب كندورتي. وعندما حان موعد قيلولتهما هو وعمَّتي عالية، خرجت إلى حوش البيت وتواريت خلف سدرة كبيرة، وأشعلت العود بواسطة علبة ثقاب أخذتها من المطبخ. سعلت كثيرًا عند أول مجَّة، لكنني بعد مرتين تمكَّنت من تدخين العود كاملًا، كأنني معتاد على السجائر.

في اليوم التالي دخَّنت العود الثاني. ثم ابتعت علبة سجائر من البقال وحين رمقني بنظرة شك قلت إنها من أجل عمِّي. لاحقًا سألني عمِّي إن كنت أدخِّن، كأنه يسأل أحد أصدقائه. سَكَتُّ ولم أنكر ظانًّا أن رائحتي كشفتني. لكنه قال إن البقال أخبره أنني ابتعت له علبة، واستغرب من ذهابه إليه ليشتري السجائر في اليوم نفسه. ثم قال هامسًا وهو يبتسم: أنا أدخِّن منذ أن كنت في عمرك. لكن احذر من أن تعرف عمَّتك، ما فيني على طحنتها. ابتسمت مطمئنًا من أن سرِّي في بئر معه وتخيَّلتها تطحن رأسه باتهاماتها بأنه يفسد ابن شقيقها.

تركت السطح ومررت بالغرفة 106 وعادت صورة الكدمة الداكنة على ذراعها. هل لها زوج يعنِّفها؟ سأقتله إن تجرَّأ على أن يمسَّها بسوء، أم أنها مثل الكدمات التي كانت تظهر على جسد عمَّتي الشمطاء من دون سابق إنذار. هل تراها تشكو علَّة ما؟ تذكَّرت صراخ أم حمزة الذي استمرَّ طوال الليل. شتائمها ودعواتها على أبنائها وأبيهم. الأب الذي لم أره سوى مرتين منذ انتقالي للسكن قبالتهم. يغيب لأشهر طويلة ثم يعود ويبقى بضعة أيام ويختفي من جديد. في الأيام التي يكون فيها موجودًا، يقلّ خروج حمزة من البيت وأم حمزة تصمت، ولا تنتابها النوبات الجنونية من الصراخ والدعاء. رأيته من النافذة حين ترجَّل من التاكسي قبل ثلاثة أيام، ودخل إلى البيت يحمل حقيبة رياضية. بالأمس بعد صراخ أم حمزة عمَّ سكون مريح فظننتها هدأت،

وأغمضت عينيَّ أخيرًا، ونمت ساعتين. ثم صحوت على صوت سيارة الإسعاف. خرجت بملابس نومي وحذاء المنزل وتقدّمت نحوهم.

كان حمزة منهارًا، ولا وجود لوالده في المكان. الكدمات تملأ وجه أم حمزة، وأنفها ينزف وهي غائبة عن الوعي. ركب حمزة سيارة الإسعاف معها وانطلقوا إلى المستشفى. عدتُ إلى غرفتي أحاول النوم لكنه جافاني حتى الساعة الأخيرة قبل موعد استيقاظي للعمل. كانت غفوة قصيرة، نهضت منهكًا لكنني منَّيت نفسي برؤية جواهر وكان لقاؤها باردًا ومحبطًا لي. شعرتُ بإعياء وتذكَّرتُ أنني لم أتناول شيئًا منذ عصر الأمس، تسارعت دقات قلبي، ومثلها أنفاسي. نظرة منها كانت ستجعلني أشعر بأنني بخير، سيهدأ قلبي وتنتظم دقاته. سأنسى أم حمزة ونظرة الرعب على وجه حمزة. سأتنقَّل من غرفة إلى غرفة وأفحص أجهزتها جهازًا جهازًا من دون تعب أو تململ.

ما بك يا جواهر ما بك يا جوهرة قلبي؟ لماذا أنت حزينة ونائية عني. أخبريني، احكِ لي، ضعي رأسي في حجرك واحكِ لي. أنا هنا لأسمعك أنت، لأريحك أنت، وأرتاح معك وبك. أخبريني يا حبيبتي، أخبريني يا أمي وابنتي وصديقتي ورفيقتي وشبيهة أحلامي الجميلة. سأحميك من كل ما يؤلمك، سأمحو كل الذين تسبَّبوا بأوجاعك من هذا الوجود. افتحي لي قلبك، وأدخليني فيه.

- Mr. Shahin, Mr. Shahin.

يد تهزُّني وصوت خفيض ينادي اسمي. فتحت عينيَّ ورفعت رأسي عن سطح المكتب، فوجدت عامل التنظيف يقف قربي.

- Are you OK؟

- Yes I am OK.

نظرت إلى الساعة المعلَّقة على الحائط فكانت تشير إلى الخامسة.

- Thank you I will leave now.

حملت حقيبة ظهري وتركت المستشفى.

ريما

اكتشفتُ أن الإنسان ليس من الضروري أن يكون في منجم، أو أن يضع أنفه على قارورة غاز مفتوحة، ليشعر بأنه على وشك الاختناق. فقد يكون على قمّة جبل، أو في حديقة ليمون بري، ومع ذلك يشعر بأنه على وشك الاختناق.

- محمد الماغوط

أسمع الرعد يرجُّ المكان، لطالما خفت من صوته، كنت صغيرة حين سمعت الرجل الذي مات بعدما صعقه البرق. صرتُ أخاف ارتداء اللون الأبيض في الأيام التي تكون السماء فيها غائمة حتى وأنا جالسة في الداخل. كان الرجل يعمل في نخل جدي. يأتي أحيانًا للسلام على والدتي وتعطيه هي ما كتبه الله له من رزق، هذا ما تردُّ به عليَّ حين أسألها كم أعطته. شو يخصج ريموه؟ عطيته اللي الله كاتبنه حقه. اسمه شيرزاد أو هذا ما أذكره. شعره أبيض ودائمًا يلبس ثيابًا بيضاء. قميص فضفاض وسروال، في الصيف يأتي حاملًا قفيرًا مملوءًا بالرطب، وفي الشتاء يجلب حمضيات وفرصادًا. أخبروا أمي أن البرق قتله. البرق يحبُّ اللون الأبيض، وشيرزاد أبيض من رأسه حتى قدميه. "سبحان الذي يسبِّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته"، أسمع صوت أمي وهي تردِّد الآية تقترب مني، تضغط على يديَّ كأنها تخبرني بأنها معي. في داخلي أحدثها:

- أخاف يا أمي.

- لا تخافي، هذا الرعد بعده غيث، سيروي الله الأرض، وسيروي قلوبنا. سبِّحي يا ابنتي واذكري الله.

يدخل شاهين الغرفة. صار وجوده يشعرني بالاطمئنان. كأنه يعرفنا أنا وأمي منذ سنوات. رائحته مألوفة وصوته مريح. لكنه يتلعثم كثيرًا كلّما تكلم. غريب هذا الشعور بالألفة مع رجل لا تربطنا به صلة دم. دومًا كانت أمي حذرة في تعاملها مع الرجال، حتى الأطباء، كانت تحجز مواعيدنا لدى طبيبات نساء، وفي حالات نادرة كنا نرى أطباء رجالًا. منذ دخلت المستشفى أصبح أكثر الأطباء الذي يتابعونني من الرجال، وأمي لا تعترض. تقف قربي كأنها تقول لهم إنها معي تحميني وتهتم بي. شاهين الوحيد الذي يقترب مني، وأمي تراقبه من مكانها. لعلها ترى فيه ابنًا لم تنجبه. أخبرتني أنها كانت تحلم بأن يكون بكرها ولدًا. ليس من أجلي، لكن من أجل والدك. صحيح أن لديه ثلاثة أولاد، لكنه دومًا كان يقول إنه يريد أن ينجب مني صبيًّا، يكون لي سندًا، ويعينني على تربية البنات اللاتي سأنجبهنَّ لاحقًا، كان يسمِّيني أم سعيد، سنسمِّي ابننا سعيدًا على اسم والدك.

شعرت بسعادة غامرة، وكبر والدك في نظري مرات ومرات؛ لأنه يعرف أنني لو رُزقت بولد كنت سأحبُّ بأن أسمِّيه على اسم والدي. لكن جئت أنت، وكان الاسم الذي اتفقنا عليه إن رُزقنا ببنت هو مريم. في يوم استيقظ من النوم، وأخبرني بأنه حلم بأنه رُزق ببنت وسمَّاها ريما. لهذا أسميناك ريما. كنا سننجب الكثير من الأبناء، لكن الله اختاره.

تذكَّرت الأغنية التي سمعتها ذلك المساء من هاتف شاهين. وحبيبته التي تقتله بنعومة بأغنياتها. لم يكن شاهين يستمع إلى أغنية هذه المرة، لعلّه يخاف الرعد هو أيضًا ويتلو الآية في سرّه. تلعثم حين سألته أمي عن أحواله. واقتربت رائحته مني، أتخيله متوسط الطول، ونحيلًا كما نعتته أمي، نظرته حادَّة وأنفه رفيع. شفتاه داكنتان من تدخين السجائر. وهالات سوداء تحت عينيه بسبب ورديات الليل. حين خرج من الغرفة كان الرعد قد توقَّف، وحلَّ مكانه صوت انهمار المطر بغزارة، سمعت أمي تتحرَّك نحو النافذة، بقلبي أراها، ترفع يديها، وتتضرَّع بالدعاء. كانت تدعو لي بزوج صالح، الآن صارت تدعو بأن أصحو من غيبوبتي، وأستعيد عافيتي.

- أمي، ألم يطلبك أحد للزواج بعد أبي؟

- لن يجرؤ أحد، قبل زواجي به لم يجرؤ أحد. لقد كان حبّ سالم واضحًا وجليًّا في عينيّ، حتى حين لم أخبر أحدًا به، كلهم كانوا يعرفون أن جواهر تحبُّ سالم. تحبُّه حبًّا لم تحبه امرأة لرجل.

- لكنك عشت بعده يا أمي، لماذا يقولون إن العاشق لا يقدر على العيش إن فقد معشوقه؟

نظرت إليَّ تحاول فهم سؤالي/اتهامي ثم ابتسمت وقالت:

- عشت لأنك جئت. حين أخبروني عن موته، غبت عن الوعي، وكنت كلّما فتحت عينيّ لأستوعب حقيقة موته غبت ثانية. حاولت الهروب من الواقع، وتمنيت أن ألحق به. لكن في يوم جاؤوا بك إليَّ. وضعوك بقربي على السرير. وأنت ضممتني بذراعيك الصغيرين. حينها عرفت أنني يجب أن أكون قوية، يجب أن أعيش لأربِّيك وأكبِّرك، لأنك الشيء الوحيد الذي تبقَّى لي من ذكرى والدك. رغبت بالعيش من أجلك يا ريما.

- أريد حبًّا يشبه حبّك لأبي وحبيبًا مثله.

- سيأتي الحب فلا تستعجليه.

لم أستعجله كما نصحتني أمي، وبقيت صورته غير واضحة، حفصة تظنُّ أن الحبَّ حين يأتي يكون معروفًا، ولن يحيّرني كما احترت مع هادي سعيد. ليس حبًّا يا ريما، هذه لهفة مؤقتة وستخبو، سأذكِّرك. هل مشاعري التي تهيج حين يدخل شاهين إلى غرفتي لهفة مؤقتة أيضًا؟ شاهين لا يكلِّمني ولا يكتب لي ولا يشاكسني. هو فقط يجعلني راغبة في أن أفتح عينيَّ لأراه، في أن أعود إلى الحياة لأكلمه ولو لمرة واحدة؛ لأعرف إن كان هو الحب الذي أتى لأحب الحياة وأحب نفسي، لأسكت الأصوات التي تعبث بي، وترهق عقلي، الأصوات التي جعلتني أصل إلى هذه الحال، وأعطِّل حياتي وحياة أمي.

شاهين

اليد التي قتلت الذبابة هي نفسها التي ارتفعت لتصلِّي.

- غير معروف

"وعاد قايين يتظاهر بالودِّ لأخيه هابيل، وحدث إذ كانا معًا في الحقل أن قايين هجم على أخيه هابيل وقتله. وسأل الربّ قايين: أين أخوك هابيل؟ فأجاب: لا أعرف، هل أنا حارس أخي؟ فقال الربُّ له: ماذا فعلت؟ إن صوت دم أخيك يصرخ إليَّ من الأرض. فمنذ الآن، تحلُّ عليك لعنة الأرض التي فتحت فاها وابتلعت دم أخيك الذي سفكته بيدك. عندما تفلحها لن تعطيك خيرها، وتكون شريدًا وطريدًا في الأرض. فقال قايين: عقوبتي أعظم من أن تحتمل، ها أنت اليوم قد طردتني عن وجه الأرض من أمام حضرتك أختفي. وأكون شريدًا طريدًا في الأرض، ويقتلني كل مَن يجدني. فقال الربُّ له: سأعاقب كل مَن يقتلك بسبعة أضعاف العقوبة التي عاقبتك بها. ووسم الربّ قايين بعلامة تحظر على مَن يلقاه اغتياله. وهكذا خرج قايين من حضرة الرب".

أغلقت الكتاب المقّدس على صفحة من سفر التكوين وكنت قد أخذته من كريس الممرِّض بعد أن شعرت بالفضول للاطلاع عليه. نظرت إلى الساعة فوجدتها تشير إلى التاسعة والنصف. كانت تلك أطول نصف ساعة في حياتي، انتظرت قرب مواقف الزوار حتى العاشرة وسبع دقائق. وكان ذلك حين رأيتها تحمل كيسًا قماشيًّا كبيرًا، فيه دلَّة قهوة ممسكة بشنطة يدها في اليد الأخرى. وددت لو أهرع لأخفِّف أحمالها، لكن سائقها سبقني، وخطف منها الكيس ووضعه على الكرسي الأمامي، وجلست هي في الخلف. تحرَّكت السيارة فتبعتها، تسكن على بعد عشرين دقيقة من المستشفى وعشر دقائق من منزلي. عشر دقائق فقط. بيت كبير، مصابيحه مضاءة، وتصطفُّ في

مواقفه الخارجية ثلاث سيارات. أَيُّها يا ترى سيارة الزوج؟ لم توحِ لي أيّ من السيارات الثلاث بأنها عائدة إلى رجل البيت الذي لا بدَّ من أن يقودَ سيارة فارهة. قد تكون سياراته مصفوفة في الداخل.

خشيت أن يتنبَّه السائق أو هي لوجودي خارج المنزل. هي دخلت إلى الداخل تبعها السائق، ووضع الكيس عند الباب، وعاد إلى سيارته؛ ليوقفها في المواقف الداخلية. انتظرت عشر دقائق واتصلت بها. كنت قد حصلت على رقم هاتفها من ملف ريما. تحايلت على كريس الممرِّض الفلبيني ليفتح ملفها. حفظت الرقم الذي كان مميزًا وسهل الحفظ. تأَوَّه كريس وهو يقرأ حالة المريضة متحسرًا على حياتها، قد لا تصحو من غيبوتها.. تعلم؟ هززت رأسي وحرَّكت يدي مظهرًا عجزي وانعدام حيلتي. شكرته على إشباع فضولي. فضرب كتفي وقال: No problem man. لم ترد، كان الوقت متأخرًا على كل حال، وندمت على الاتصال. لكن الهاتف عاد ليرنَّ فالتقطته وأجبت، جاءني صوتها متوترًا:

- شاهين؟ هل حدث شيء لريما؟

- كلا كلا يا أم ريما، أنا آسف، لقد وددت أن أشكرك، فحسب.

- الله يسامحك، قلبي طاح يوم شفت رقمك.

- آسف. أنا فقط..

- ما عليه، سامحني أنت لكن ربطت اتصالك بالمستشفى. سكتت تلتقط أنفاسها ثم سألتني: ماذا كنت تقول؟

- كنت أقول إنني رغبت في أن أشكرك على الروشن الذي أرسلتِهِ والطعام، أخجلتني بكرمك.

- لا شكر على واجب. أنت مثل ولدي.

شعرت بصفعة على خدِّي. أكملت تقول: كيف أنت؟ وكيف هم أهلك؟

- بخير شكرًا لك.

تغيَّرت نبرة صوتها وتخيَّلتها تجلس على الكرسي أو السرير بعد أن أفزعها اتصالي، وبقيت تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا.

- تعرف يا شاهين؟ لقد جئت إلى البيت، وأنا أفكِّر في الليلة هذه كيف ستمرُّ عليَّ. اليوم مرَّ على وفاة زوجي ثلاثة وعشرون عامًا. كل عام تكون معي ريما، ومن أجلها أجاهد نفسي لتمرّ الليلة بسلام. أبكي خفية حتى لا أتسبَّب لها بالحزن، أعرف أنها تقلق عليَّ، ولا تحبُّ رؤيتي حزينة. هذا العام ريما ليست معي. خفت أن أستسلم لحزني، ولا أصحو في الغد. لقد اشتقت إليه كثيرًا، وأودُّ أن أجتمع به. لكن ريما، ريما ستبقى وحيدة. وحيدة في غيبوبة، لا يمكنني أن أتركها. لهذا لا أريد أن أترك نفسي للبكاء.

اختنق صوتها وانفجرت دموعها.

- أنا معك، ابكِ.

- آسفة.

- لا تتأسَّفي أرجوكِ.

صمتت برهة حتى ظننت المكالمة انقطعت بيننا، ثم قالت:

- تعرف؟ في العزاء، كانت النسوة يردِّدن عليَّ: إن شاء الله آخر الأحزان. كان موت سالم أول حزن جارف يعتريني، وآخر حزن كما كُنَّ يردِّدن. وبقي ذلك آخر حزن وأكثر الأحزان بقاء. فقدت كثيرًا بعد سالم، حتى والدي الذي أحبني أكثر من أي أحد لم أحزن عليه كما حزنت على حبيبي.

كان الدم يفور في عروقي، وهي تقول عنه حبيبي. لكنني بقيت أستمع لها.

- ما حدث لريما لم يحزنني بقدر ما كسرني. شعرت بأنني ضعيفة ووحيدة حين أخبروني أنها تعرَّضت لحادث. وحين عرفت أنها في غيبوبة تحطَّمت، خفت كثيرًا من أن أفقدها. هي كل ما بقي لي من سالم. لا أستطيع

التفكير حتى في فقدانها. لن أتمكّن من العيش، أن تظلَّ هكذا نائمة نومها الأبدي أهون ألف مرة من أن تتركني وتموت.

- يا لضعفها وغبائها، لا أحد يموت بعد موت أحد، ويا لغبائك أنت يا ولد حسنوه. هذه الغبية يجب أن تموت. بلهاء.

طحنت أسناني لأسكت صوت الشمطاء. اللعينة تريد أن تحوِّل إشفاقي على جواهر إلى غضب. لست غاضبًا عليها، أنا حانق على الظروف التي تحيط بها. على الحزن الذي يعميها عني والذي يحول بين قلبها وقلبي. احكِ يا حبيبتي، تكلمي. ولتصمتي أنت يا عجوز النار.

- بالأمس زرته، وبكيت هناك كثيرًا، وحين نهضت، بعد أن قرأت له سورة يس، تعثَّرت بحجر واستندت إلى شاهد قبره بجسمي. لم يؤلمني شيء وقتها، لكنني اليوم صباحًا استيقظت ووجدت كدمة على ذراعي. سالم الذي لم يؤلمني يومًا في حياته، تعثَّرت بالأمس عند قبره وآذيت ذراعي بشاهد قبره. لا أعرف ما الذي يحدث لي. ولا ما ستؤول إليه حياتي. لكنني عاجزة عن التفكير، ربما في غيبوبتها تقيّدني، وفكرة أن أفقدها تعطّل رأسي. متعبة كثيرًا أنا يا شاهين، متعبة جدًّا.

"اسمحي لي بأن أريحك. تكلمي، أخبريني المزيد، ألقي بأحمالك عليَّ وانسها. أنا مثلك مثقل ومتعب، لكنني معك أصير خفيفًا وصحيحًا. لقد مات زوجك، لكنني هنا أسمعك، وأشعر بك وأريدك. لست وحدك يا جواهر، أجل أنا مثل ولدك، لكنني أيضًا أقدر أن أكون لك أشياء كثيرة، ستعرفين مع الوقت أنني أحبك وأفهمك، وأهتم لك أكثر من أي شخص في هذا العالم، ستعرفين قريبًا يا حبيبتي".

همستُ:

- سيمضي هذا التعب وسترتاحين.

لم تقل شيئًا، وتهيَّأ لي أنني سمعت تنهيدة تشبه أنين الطفل حين ينام. بقيت على الهاتف أحاول إطراق السمع، ليصلني صوت أنفاسها وهي نائمة.

وددت لو أدخل مخدعها وأرتِّب وسائدها وأغطيتها، أطفئ النور وأبقى قربها أحرس أحلامها، وأشعرها بالأمان. أنهيت المكالمة بعد ثلاثين دقيقة. خرجت من السيارة بعد أن أطفأت مكيفها ومحرِّكها. ألقيت نظرة على منزل أم حمزة، وكان ساكنًا مثل بيت مهجور. لم يَعُد حمزة بعد، ولم تَعُد أمه. دخلت البيت، ارتديت ملابس نومي وغرقت في نوم عميق.

ريما

وحده الموت يجعل للحياة معنى.

- نيل شاسترمان

- Happy new year.

قالت الممرِّضة لحظة دخولها الغرفة، شكرتها أمي وردَّت:

- Happy new year.

- I wish that Rima gets well soon.

تخيّلت وجه أمي وهو يبتسم.

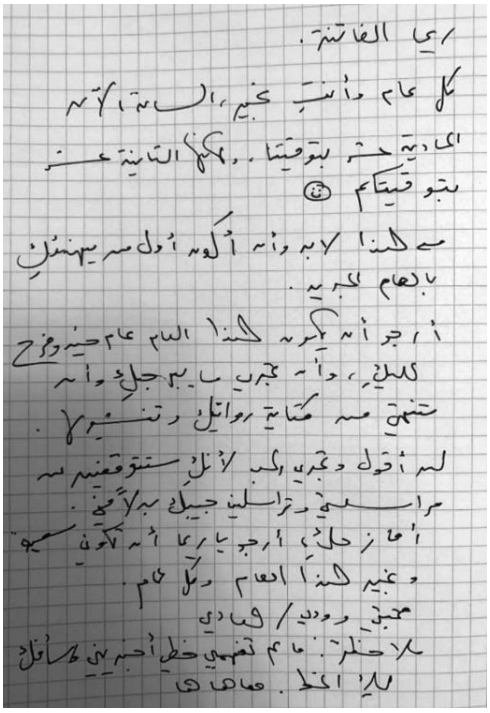
- Inshallah Dear, Thank you.

- Try this Madam, I baked it at home.

- Thank you.

فتحت أمي الكيس فسمعت الخشخشة وتسلَّلت رائحة كعك الزنجبيل إلى أنفي ودغدغته. تحبُّ أمي كعك الزنجبيل وأي بسكويت يصنع منه. أبتاع لها علبًا من محلات "ماركس أند سبنسر" حين أَمُرُّ بمركز فتوح الخير وأنا خارجة من الجامعة.

منذ عرفت هادي سعيد وهو يرسل لي معايدة بالعام الجديد. العام الماضي أرسل إليَّ معايدة مختلفة، كتبها لي بخطِّ يده وصوَّرها ثم أرسلها.



ريما الفاتنة.

كل عام وأنت بخير، السنة الأولى الحادية حتى بتوقيتنا، والثانية عشر بتوقيتكم ☺

سنة لنا لابد وأنه أكون أول من يهنئك بالعام الجديد.

أرجو أنه يكون لنا العام عامًا حيث وفرج للكل، وأنه تجربي بابه جلاء وأنه تنتهي منه كمامة روائل وتنشيل.

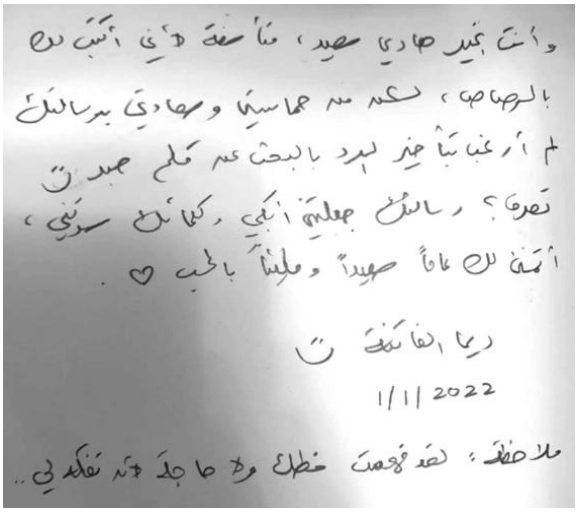
لسه أقول وتجربي لكن لأنك ستوقعيني من مراسلتي وتراسلين جيلك بدلًا مني.

أطال الله عمرك، أرجو يارما أنه تكوني بصحة وعافية لنا العام وكل عام.

محبتي ودعواتي/ الهادي

ملاحظة: ما تفهمي خطي أحسن لي مسائل الله الخط. هاها ي

تناولت دفتري سريعًا وكتبت له ردًّا بقلم رصاص:



وأنت بخير هادي سعيد، فأنا سعيدة لأني أكتب لك بالرصاص، لكم من حماستي وحماسي برسائلك لم أرغب بأن أخذ لهدر بالبحث عن قلم جيد لن تصدق؟ رسائلك جعلتني أبكي، كما أنك سرقتني، أتمنى لك عاماً سعيداً ومليئاً بالحب ♡.

ريما الفاتنة

1/1/2022

ملاحظة: لقد فهمت خطك وهو جاهز أنه تفكيري..

بعد دقائق معدودة من إرسالي للرسالة كتب: "يا لروعتك يا ريما، كنت سأطلب منك أن تكتبي لي بخطّ يدك، أعجبتني "هادي سعيد" (وجه يضحك) لقد صنعت لي اسمًا مركّبًا. يروقني هذا. (وجه يغمز). لكن لماذا كتبت لي بقلم رصاص؟ لقد لاحظت أنك مسحت الوجه المبتسم وأعدت رسمه، يا لك من فتاة يا ريما، تكتبين بالرصاص حتى تتمكني من مسح ما لا ترغبين بقوله، مثلما تفعلين معي دائمًا. (وجه يخرج لسانه). عمومًا يا فاتنة، شكرًا لك ومرة أخرى عامك سعيد. نامي الآن قد تصحو أمك، وتفتقد وجودك، فتكرهنا معًا. هابي نيو يير ريما".

أسمع خشخشة كيس الكعك بالزنجبيل مرة أخرى، يليها صوت مضغ أمي بعد أن دسَّت قطعة صغيرة في فمها. تسكب بعدها قهوة في فنجانها، فتصلني رائحتها كما تحبها بالهيل وماء الورد. أشتهي القهوة والكعك، لكنني أبعد ما أكون عن القدرة على تناولهما. بعيدة أنا أيضًا عن الحب، ذلك الذي وجدتني فجأة تواقة له. أسرق مذكرات أمي، رسائلها التي كتبتها لأبي، وأقرأها لساعات، أنسخ بعض المقاطع وأتخيَّلني أُعيد كتابتها، وأرسلها إلى حبيب لم يأتِ بعد. حفصة لها قصة حزينة مع حسن لكن جميلة. وأمي عاشت الحبّ مع أبي. البنات في الجامعة يحكين عن خطيب وحبيب ومعجب سرِّي أو علني. وأنا مجرَّد مستمعة للقصص التي لا نصيب لي بعد فيها.

أريد أن أحبَّ؛ وأن أذوب من العشق. أن أسهر ويرسل لي حبيب تهانيه بالعام الجديد، ثم في الصباح يهديني زهورًا وقلادة ذهبية أضعها ولا أخلعها أبدًا. وقد نضع أنا وهو القلادة نفسها، قلب مقسوم إلى قسمين، نصف على صدري وآخر على صدره. أو ليعلِّقه في سيارته أو يحفظه في صندوق خشبي مقفل. لا مشكلة. المهم أن يكون لديَّ حبيب يهديني الزهر والهدايا. حبيب يغار عليَّ، ويخاف من أن يفقدني. يسهر معي ويحدِّثني. يخبرني عن رأيه في روايتي، وقد أكتب له الشعر، أكتبه له وحده. مثل القصائد التي تكتبها أمي في مذكراتها لوالدي الذي مات عنها حين كان عمري عامين. كم أنت بلهاء يا ريما. عن أي

حبٍّ تتكلمين وبأي حبيب تحلمين؟ وأنت حبيسة هذه الغرفة، ممدَّدة على هذا السرير منذ أشهر.

أي حبيب سيرغب بفتاة على حافة الموت. تعرفين كم من الوزن فقدت؟ كيف صار وجهك؟ وكيف خبا جمالك؟ لقد ذهبت للموت برجليك، ولا طريق رجعة تعودين منه. احلمي بالحب، لكن اعلمي بأنه لن يخرج عن نطاق أحلامك.

شاهين

إن الذاكرة والألم توأمان، لا تستطيع قتل الألم من دون سحق الذاكرة.

- غادة السمان

ما زالت الدروازة الخضراء مكانها، بهت لون الطلاء، لكنها خضراء لا تزال في ذاكرتي، بعض أجزائها مطلي بالأبيض تحوَّل إلى أبيض مائل إلى الصفرة. الأقواس العلوية لمدخل البيت مكانها. كان يروقني شكلها، وكنت أحلم بتسلّقها والجلوس عليها، لكنني لم أفعل يومًا خشية السقوط. في الضلفة اليمنى هنالك باب صغير يفتح إلى الداخل، يترك مفتوحًا أغلب الوقت، والدروازة لا تفتح على مصراعيها إلّا حين يلزمُ إدخال سيارة للتنزيل أو التحميل. أجلس مقرفصًا بجانبها أنتظر أو لا أنتظر مرور أحد، وذلك عندما تدخل عمَّتي عالية وزوجها مانع لأخذ قيلولتهما. حاولت الشمطاء عبثًا جعلي أنام وقت الظهيرة. تقرصني من أذني، وتجذبني وتغلق الستارة، وتطفئ الأنوار. لكنني أبقى مفتوح العينين، أستمع لأنفاسها وهي تعلو ثم تتبع بشخير يدوِّي في الغرفة، ينافسه صوت مكيّف النافذة الذي تشغله في الصيف والشتاء.

تنام ساعة واحدة ثم تصحو، وترفسني ظنًّا منها أنني نائم. تتناول برقعها وتدخل الحمام لتتوضأ، ثم تصلِّي العصر، وتستقر في الصالة، حين أتأخر عليها تصرخ: شاهينوه أحضر الكجوجة. في البداية لم أكن أعرف ما هي الكجوجة. ثم عرفت أنها ذلك الشيء الذي يشبه الوسادة والذي تتدلّى منه بكرات خيوط، تبقى هي تحركها في حركة مدروسة، حتى تصنع خيطًا سميكًا بألوان مختلفة تسميها تلّي. رأيتها وهي تثبِّتها على ثيابها بخيط وإبرة، وتلبس الثياب في أيام الصيف. وأحيانًا كانت ترسل تلك الخيوط بعد أن تطويها في قطعة

قماش إلى الخياط، فيصنع منها كنادير تلبسها في العيد. أحيانًا كانت تقرض البراقع عصرًا. وتصبح يداها ملطختين باللون النيلي. بعد أن أنهكها التعب صارت تلبس براقع يقرضها عامل آسيوي، تقلّبها وتهزُّ رأسها، وهي تدمدم: حتى البراقع قرضوهن هذيلًا عنا. ثم تسحب علبة البسكويت التي تضع فيها عدة الخياطة، وتخرج خيطًا أسودًا تدخله في ثقب الإبرة، وتشرع في إصلاح البراقع بعد أن تقصَّها بالمقصِّ، لترتّب مقاساتها وتعيد تثبيتها بالإبرة.

في بيت عمَّتي عالية كنت أقضي وقت الظهيرة وحيدًا جالسًا في الخارج، على كرسي مانع البلاستيكي بلا عمل، أو أصنع مجزرة للنمل السائر في طريقه لجمع طعامه، أهوي بِنَعْلي على الحشرات الصغيرة والزاحفة الملتصقة ببلادة على الحائط، أو أطارد القطط السائبة، وأعذِّبها إن تمكَّنت من الإمساك بها. لاشعوريًّا أجدني أقود سيارتي إلى منزل عمَّتي عالية. أركن السيارة بعيدًا، وأنظر نحو الدروازة الخضراء. أتذكَّر طقم الكراسي في غرفة الجلوس. كان أخضر أيضًا. المطرح الأخضر الذي يغطِّي سرير عمَّتي عالية والذي يفوح برائحتها. كناديرها الخضراء الكثيرة. الأخضر لون الجنَّة، ولون روضة النبيّ. كل الخضرة التي أحاطت نفسها بها كانت مقبولة بالنسبة إليَّ إلّا شيئًا واحدًا: الخاتمَ ذا الحجر الأخضر الذي كانت لا تخلعه من خنصرها الأيمن. هذا الخاتم من عند أمي، أعطتني إياه يوم زواجي، ومنذ ذلك اليوم لا أخلعه.

بعدما ماتت الشمطاء، كانت عالية تبكي كلّما وقعت عيناها على الخاتم. أراقبها أحيانًا وهي تمسح عليه، وتسرح بعيدًا كأنها تتذكَّر الأم القاسية التي أخذها المرض بعيدًا. فكَّرت في سرقته ورميه بعيدًا، لكنها لا تخلعه أبدًا حتى عندما تستحم. بعد موتهما هي وعمي، بحثت عن الخاتم ولم أجده. ولم أكترث، لكنني تذكَّرته حينها، وما زلت أشعر بالحنق كلّما تذكَّرته. جواهر تضع خاتم في خنصرها الأيسر، لا بدَّ من أنه خاتم زواجها، هي الأخرى لا تخلعه. أتخيّلها تستحم به أيضًا. أغبط الخاتم، وأحقد على الزوج الذي حظي بها، وبكته وهي تحدثني على الهاتف تلك الليلة.

في الصباح بقيت أحدِّق في الهاتف أملًا في أن تبعث إليَّ بشيء. تحية صباحية تمتنُّ فيها، لأنني سمعتها، وتعاطفت مع حزنها الذي ضاقت به. اعتذار

ربما أو ندم، لأنها أشركتني في شؤون خاصة. لكنها لم تفعل. ولا أعرف لماذا لا أشعر بأنني راغب في الذهاب سريعًا إلى العمل لرؤيتها. نظرت إلى ساعة السيارة فوجدت أن هنالك نصف ساعة متبقية على موعد العمل. أمسكت بالهاتف فوصلتني رسالة كانت منها. قفز قلبي وغادرتني الكآبة التي كانت تطوّقني منذ لحظة: شاهين كيف حالك؟ إن كنت في المستشفى مُرَّ بي. هي سترحل عند العاشرة، وأنا تبدأ ورديتي في التاسعة، وعليَّ أن أراجع بعض الأوراق عند وصولي، وأبقى في المكتب في الساعة الأولى على الأقل ما لم تكن هنالك حاجة لفحص جهاز ما. تركتها من دون أن أردَّ على رسالتها. ثم بعد دقيقتين اتصلت بها:

- مساء الخير سيدة جواهر.

هيِّئ لي أنها ضحكت:

- مساء النور شاهين، طلعت تعرف اسمي!

تلعثمت وضحكت ببلاهة:

- من سائقك، حين جلب الطعام ذلك اليوم، هو أخبرني باسمك.

- ما شاء الله عليه محي الدين.

- كنت تريدين مني شيئًا؟

- لا، لا، لكن لم أرك منذ مدة. هل كنت في إجازة؟

علت دقات قلبي وشعرت بمغص في بطني: نعم، ليومين، واليوم عندي وردية ليل. خشيت ألّا أتمكَّن من المجيء إليك، ففكَّرت بالاتصال بك.

- يعطيك العافية، اعتنِ بنفسك.

- شكرًا لك.

أنهت هي المكالمة وشعرت أنا بالاستياء لأنني لم أذهب لرؤيتها، أنا الذي وعدتها بأنني سأكون موجودًا حين تحتاج إليَّ. ماذا لو كانت تريد شيئًا ما؟ لكن

ماذا عساها تريد؟ وماذا ستقول لي في غرفة ابنتها المريضة. هل أحبَّتني، وصارت تشتاق لرؤيتي؟ نعم نعم هي قالت إنها لم ترني منذ مدَّة. لا بدَّ من أنها تشتاق إليَّ. قطعت الرسالة التي وصلتني حبل أوهامي: كنت أريد أن أشكرك على بقائك معي على الهاتف تلك الليلة. لا أذكر كيف انتهت المكالمة، لكنني صحوت وأنا أشعر بارتياح. شكرًا لك. حدَّقت في الهاتف، وكتبت كلمات ومسحتها. لم أعرف بماذا أردُّ عليها. تقول إنها لا تذكر كيف انتهت المكالمة. انتظرت حتى وصلت إلى المستشفى، كل الوقت كنت أنظر إلى الساعة وباقترابها من العاشرة كانت دقات قلبي تتسارع. قلبي يهفو إليها، لكن ثقلًا في روحي كان يمنعني من الذهاب ناحية الغرفة 106. استدعوني قبل العاشرة بدقائق لفحص جهاز في غرفة في الطابق الثاني. قضيت هناك نصف ساعة، عقلي وفكري معها. تخيَّلتها تخرج من الباب الأوتوماتيكي، تحمل دلَّة القهوة التي يتلقّفها منها السائق، ويضعها قربه على الكرسي. تجلس هي في الخلف ويذهب بها إلى البيت الذي تقضي فيه ليلتها وحيدة. تذكَّرت عبارة قرأتها منذ مدَّة في مكان ما: "كان عليَّ أن أكون رسامًا مرة واحدة فقط، لأمحو هذا الباب الذي تذهبين منه دائمًا". كتبت لها لاحقًا: عفوًا سيدة جواهر. وانتظرت أن تكتب شيئًا، لكنها لم تفعل. انقضت الليلة هادئة وثقيلة، وأظنُّ ليلتها كانت شبيهة بليلتي.



الدروازة الخضراء

ربما

جميع الناس يصدِّقون عادة معظم ما يقال لهم في هذا العالم الشرير.

- أجاثا كريستي

شعرت بضيق في صدري. هل هذه هي الغيرة؟ أمي مهتمة بشاهين، "لم أركَ منذ مدة"! منذ متى وهي تحرص على الالتقاء بالناس الذين تحسن إليهم، خاصة وإن كانوا رجالًا. هو في عمري تقريبًا، صوته يوحي بذلك. وهي تقول له "أبويه"، حسنًا، أمي تقول للعامل والسائق في المنزل "أبويه"، لكنها لا تقول للعامل "لم أرك منذ مدة". ربما هي تشعر بالملل، ووجدت في شاهين تسلية لها على قلّة كلامه. هل تراها تشعر بالارتياح عندما تتحدث إليه لأنه غريب، لا سيما أننا نرتاح عادة للحديث مع الغرباء أكثر من الحديث مع الناس الذين نعرفهم؟ مع هذا أمي ليست من هذا النوع.

يبدو أنها نسيت الموقف السخيف الذي وضعت نفسها فيه مع السائق التركي الذي تعاملنا معه في رحلتنا الأخيرة إلى إسطنبول. لم أرتح له منذ اللحظة الأولى. كان يراقبنا كل الوقت من المرآة الأمامية، ويتغزَّل بنا كلّما ركبنا معه في السيارة. وعندما أعبِّر لها عن استيائي كانت تضحك وتقول إن الشعب التركي هكذا. وهو في النهاية لم يتجاوز حدوده، وإن فعل سأعرف كيف أُؤَدِّبه.

مرة أقنع أمي بالذهاب في رحلة في مركب على البوسفور. قال: إن الأجواء جميلة، وأكّد أننا سنستمتع. وكنا نادرًا ما نخرج مساء، كوننا نسافر أنا وهي وحيدتَيْن. لكنها اقتنعت، واطمأنت حين قال إنه سيكون معنا كل الوقت. بدأت الرحلة بأجواء لطيفة، وكنا مستمتعين بالموسيقى والمقبلات في

المركب المغلق والدافئ. تابعنا العروض الممتعة، واستمعنا للعزف، ونحن نشاهد معالم إسطنبول من خلف الزجاج الذي يغطي القاعة الكبيرة التي نجلس فيها. ثم وصلنا إلى فقرة الراقصة الشرقية. تحوَّل وجه أمي إلى صفحة حمراء من الحياء والغضب، مع صراخ وتشجيع بقية الركاب من الرجال. رمقت أمي يوكسال بنظرات من العتاب، وكان هو يضحك مستمتعًا، كأنه نجح في المقلب الذي جهَّزه لنا. لم يكن ترك المركب والعودة إلى الضفة ممكنين، لأنه مليء بالركاب، ولا أحد سوانا يرغب بالعودة، تركنا القاعة وتوجهنا إلى السطح، ننتظر العودة إلى الضفة، ونحن نرتجف من البرد. في اليوم التالي لازمني مغص شديد وحمى بسبب البرد الذي دخل إلى بطني كما يحدث كلّما لفحني هواء بارد. حاول يوكسال الاعتذار منا، لكن أمي دفعت له الباقي من المال الذي اتفقا عليه عند وصولنا إلى إسطنبول، وطلبت منه عدم الاتصال بها. بقي يرسل لها رسائل صوتية معتذرًا، وأمي تحظر رقمه، فيرسل لها من رقم آخر؛ حتى اضطرت لتغيير الرقم.

ثم في أحد الأيام وجدناه ينتظرنا عند مدخل العمارة، ويصرُّ على الحديث مع أمي لتوضيح الأمور. كان الموقف مرعبًا، فهو يعرف عنوان شقتنا، ويمكنه بسهولة معرفة الطابق، ورقم الشقة، ويداهمنا ليلًا. هدَّدته أمي باستدعاء الشرطة، وتكلَّمت مع حارس العمارة، وطلبت منه عدم السماح له بالدخول. جمعنا أغراضنا وقدَّمنا حجز الطيران، وعدنا إلى الإمارات.

كانت أمي ترتعد غضبًا وخوفًا، وتلوم نفسها على ما حدث. ولم أجد فائدة من قول المزيد أو التعليق على الأمر. أمي التي على الرغم من قوة شخصيتها تقع أحيانًا في فخاخ البشر، وتخطئ في تقدير نواياهم. أنا كنت دومًا أكثر حذرًا منها، ولديَّ قدرة على معرفة معادن الناس. مع هذا كانت لا تصدِّقني وتقول إني كثيرة التوجُّس.

ماذا لو كان شاهين من النوع الذي ينصب الفخاخ للسيدات الطيبات الوحيدات. لكن من أين سيعرف أنها وحيدة؟ أمي تتحدّث عن والدي كأنه حيٌّ بيننا. تقول زوجي يحب، وزوجي يملك، وزوجي فعل وقال. أشفق عليها من أن يعرف الشخص الذي تتحدّث إليه أن والدي مات منذ أكثر من عشرين عامًا.

مسكينة ومجنونة يقولون عنها. هي لا تنظر إلى الأمر من هذا المنظور. تسميه وفاء وإحياء لذكرى الحبيب الذي غاب عنها قبل أن تشبع منه. ما كنت لأشبع منه، ولو عشت معه مئة عام. صار يزعجني اهتمامها الشديد بشاهين، وتردّده على غرفتي بسبب ومن دون سبب. ولا أعرف هل انزعاجي من اهتمام أمي به، أم من اهتمامه هو بها.

شاهين

لماذا تقتل بينما يمكنك الهروب؟

- ريتشارد بريور

عدت إلى البيت مثقلًا، فتحت الباب فاستقبلني صوت محمد فوزي على الراديو يغني الأغنية التي تذكِّرني بزوج عمَّتي مانع:

يالليي شغلتي القلب تعالي، ردِّي عليا ورقِّي لحالي

قبل ما أحبك كنت أنا خالي واللي جرى لي ما كان على بالي

لم أشعر يومًا بهذا القدر من التعاسة وانعدام الحيلة. ليتها كانت متزوِّجة، وزوجها على قيد الحياة لأنسى أمرها، وألتفت إلى شؤوني. ليتني لم أرَها، ولم أعرف عنها شيئًا. تذكَّرت شمسة، صديقة عمَّتي عالية التي حكت لي قصتها، وكرهتها وكرهت كل المتزوِّجات الخائنات. لا أعرف إن كانت عالية بإخباري قصة شمسة تحذرني من النساء الخائنات، أم أنها مثل كل القصص التي تخبرني بها من باب الملل والثرثرة. تشوفها هاي شموس؟ ترمّس رياييل ومعرسين. إنها صديقتي، وأحبُّها لكنني أكره فيها هذا الأمر. تعرف ما هي حجتها؟ زوجها لا يكلّمها، ولا يهتم بما تشعر وتريد، وأبناؤها لا يحترمونها ولا يجلسون معها. لهذا هي تبحث عن رجال آخرين يسمعونها، ويتكلمون معها. وتقول إنها تتوب وتخلي هالسوالف، لكنها ترجع. لأن ذيل الكلب أعوج، ولو حطوله قالب ذهب. قلتلها أنا: يا الحمارة بخبره بخيت عن سوالفج. ضحكت. تعرف إني ما بسويها. هل تتخيّل أنها تسهر حتى الصباح؟ وهي تتحدّث مع الرجال؟ وتفوتها صلاة الفجر، تخبرني بذلك وهي تضحك، حمارة الروى. ويوم أقولها ما يستوي حرام تقول خلاص إنزين برمسهم على الواتس أب. إذا كان الصوت عورة كما تقولين بنرمس بالمسجات. زين جذيه؟ أعوذ بالله من شرِّ

الفتن. يالله لا بليتنا، ولا بليت مسلم. يا بوك أنا أقول الحمد لله أني ما عندي بنات. ولا كيف بربيهن في هالزمان اللي فيه رياييل وحريم ما يعرفون الحرام والعيب. تذكَّرت شموس في اليوم الذي تبعت فيه جواهر إلى بيتها، وتخيَّلتني أحد الرجال الذين تتسامر معهم، وتعوِّض نقصها والحرمان الذي يمارسه عليها زوجها. وحين أخبرتني جواهر أنها أرملة. رثيت لحالها وندمت على تشبيهي إياها بشمسة. شتّان بين الاثنتين. ثم جواهر لا تكلّمني، لتتسامر معي، وليتها تفعل. ليتني أكون عوضها عن الحرمان والأذن التي تسمعها، والقلب الذي يحنو عليها.

نظرت نحو الكتب المكدّسة على الأرض، أريد فرز الكتب التي انتهيت من قراءتها عن الجديدة. فكَّرت في وضع التي أنهيت قراءتها في الأرفف العلوية، وترك الجديدة في متناول يدي. ولكي أسهل على نفسي إيجاد الكتب التي قرأتها، وأرغب بالعودة إليها. لم تكن لديَّ رغبة في فعل شيء. رشفت الشاي على صوت محمد فوزي وأغمضت عيني، وأنا أتخيَّل جواهري الغالية.

شوفي عينيَّا وخلي عينيَّا تحكي لك على اللي بيَّا

ودقة قلبي تشكي لك

لو خيَّروني ما بينك أنتِ وبين عيوني أختارك أنتِ

أجل أختارك أنت يا حبيبة قلبي. بأي قلب شبهتك بشمسة، لا تساوي شعرة منك. تلك الحثالة. كنت أنا الذي أخبرت بخيت عما تفعل. أرسلت له رسالة على هاتفه من رقم وهمي على الإنترنت، أخذت الرقم من هاتف مانع. الليلة كُنْ رجلًا ولا تنم، أمسك بزوجتك التي تسامر الرجال. في اليوم التالي أخبرتني عمَّتي أن شموس في المستشفى. ضربها بخيت، وحطَّم وجهها وأضلاعها. لم يكتف بهذا بل فضحها، سجَّلها وهي تتضاحك، وتهمس في الهاتف. وذهب إلى إخوتها وأخبرهم بما حدث. حاول أحدهم قتلها في المستشفى. واضطروا إلى وضع حارس من الشرطة أمام باب غرفتها. يا ويلي

عليج يا شموس، شفت وين وصلت عمرها؟ الطريق المب سيدا ما له نهاية غير هالنهاية. أمسكت بثوبها من منطقة الصدر كأنها تهف على نفسها وهي تردِّد: يا الله بسترك علينا.

إنسي اللي شفتيه واللي كان وابتسمي للحب السعيد

راح اللي راح وكان زمان وخلقني حبك من جديد

ما تفرحيش فيَّ عذالي يا أول حب خطر على بالي

قبل ما أحبك كنت أنا خالي واللي جرالي ما كان على بالي

نعم أنت الحب الأول الذي خطر على بالي، وكنت قبلك خاليًا مثل كهف مهجور. لم أعرف الحب إلّا بك يا جواهر. ولا أريد حبًّا إلّا حبك. شموس قتلها أخوها بعد أن طلَّقها بخيت، وهي في المستشفى. عمَّتي عالية عادت من العزاء منهارة. الله يرحمها، ويسامحها. لو تشوف بناتها يا شاهين، ميتات صياح، الحين منو بياخذهن هذيلًا؟ أمهن مفضوحة ومجتولة. ولو هن نسن الناس ما بينسون. يا الله كأني أشوفها جدامي يالسة وتسولف وتضحك. الله يرحمج يا شموس. استمعت لها، وهي تحكي عن صديقتها المغدورة بحيرة واشمئزاز. بالأمس كانت تقول إنها تكره فعلها، وأنها جنت على نفسها ثم تبكيها، وتنوح على بناتها. إلى جهنم وبئس المصير، شموس وكل النساء اللاتي يتسامرن مع الرجال، ويخنَّ أزواجهن.

- والله يا ولد حسنوه روزنة؟ والرياييل اللي يلاحقون الحريم؟ وين يسيرون الجنة؟

- إلى الجحيم أيضًا، وأنت معهم أيتها الشمطاء.

نظرت نحو النافذة ورأيت حمزة، بدا كأنه قد كبر عشرة أعوام. نزل من سيارة نقل الأثاث، وساعد العمال في تحميل أثاث منزلهم. بعد موت أمه،

وهروب والده سينتقل للعيش هو وشقيقه الصغير إلى منزل عمته. هذا ما أخبرني به زمان صاحب البقالة.

- مسكين حمزة، كل مرة يروح مكان، هذا ولد زيادة تعبان.

- أرجو ألّا تكون عمَّته شمطاء مجنونة.

قلت في نفسي.

ربما

احذر أن يكون الكتاب الذي تهوي به على نملة لتقتلها، يتحدّث عن حرمة قتل النمل.

- جلال الخوالدة

طنين طنين طنين، كل الليل وهذا الجهاز اللعين يطنُّ، الفني الذي جاء لفحصه لا يعرف كيف يتعامل معه. في النهاية استبدلوا به جهازًا آخر. أين هو شاهين؟ سألت نفسي، هو أفضل مَن يعرف التعامل مع هذه الأجهزة. تجادل الفني مع الممرِّضة، وبدا حانقًا، لأنها استدعته في تلك الساعة. شاهين لم يتذمَّر يومًا، كان يأتي، ويصلح الأجهزة بكل هدوء. وحدها أغنياته كانت تنساب من سمّاعة أذنه بعذوبة. ورائحته، تلك الرائحة المنفِّرة للوهلة الأولى، لكنها لاحقًا تصبح لطيفة ومحبَّبة. ربما لأنني لم أكن أحبُّ رائحة السجائر، وأنفر من المدخنين. ذلك النفور الذي تحوَّل إلى فضول دفعني لأسرق عودًا من علبة سجائر محي الدين السائق، وأجرِّب التدخين سرًّا. لا أعرف أي فكرة مجنونة كانت تلك التي جعلتني أُقدم على سرقة السجائر من محي الدين.

استغلَّيت ترجله بعد أن نادته أمي وأنا أنتظرهما في السيارة. لففت العود في محرمة ورقية، ووضعتها في جيب حقيبة يدي الداخلي. لم أجرؤ على تجربة التدخين إلّا بعد أشهر. كنت قد نسيت العود بعد أن بدَّلت الحقيبة. خرجت أمي إلى السوق مبكرة، وقالت إنها قد تتأخَّر. دخلت الحمام بعد خروجها وأشعلت عودًا، مججت الدخان بحذر. حبسته لثوانٍ في فمي ثم نفثته كما تخيَّلت أنهم يفعلون في الأفلام، لم يعجبني طعمه، لكن أعجبتني التجربة، وشعرت بالأدرينالين يرتفع في دمي. تمامًا كما شعرت وأنا أقود سيارتي بسرعة 180 كم في الساعة. أعدت الكرّة فشرقت بالدخان وسعلت بشدَّة.

رميت العود في المرحاض وأغرقته. كانت المروحة تعمل، والنافذة مفتوحة. رششت كمية من العطر، ثم نزلت إلى المطبخ وجلبت جمرًا ووضعت لبانًا حوجريًّا وتركته في الحمام، وأغلقت الباب. لن تعرف أمي شيئًا عمّا حدث هنا ولا حتى الخادمات.

لا بدَّ من أن محي الدين يدخِّن نوعًا رديئًا لهذا لم يكن طعمه جيدًا. في الجامعة عرفت بنات يدخنَّ سجائر إلكترونية، بعضهنَّ يذهبن إلى المقاهي ويدخنَّ الشيشة. لم يستهوني الأمر، ثم إنني لا أجد المرأة المدخِّنة جذَّابة. بل على العكس، فإن التدخين بكل أشكاله يفقدها أنوثتها. مع هذا احتفظت بالسرِّ لنفسي، وابتسمت كلّما تذكَّرت المغامرة التي أقدمت عليها. لم أخبر أحدًا عن هذا الأمر، حتى في روايتي لم أجرؤ على كتابته والاعتراف به. رائحة شاهين كانت تشبه الملابس التي تترك طويلًا تحت الشمس، ممزوجة بعلك بنكهة النعناع، مهما رششت عليها من العطر لتخفي رائحة الشمس لا تفلح، تبقى تلك الرائحة وتفضح كونك نسيتها طويلًا تحت أشعة الشمس. تخيَّلتني أهتمُّ به وأغسل ثيابه، أنشرها في الداخل كما نفعل عندما نكون مسافرتين أنا وأمي، حتى لا تغزوها رائحة الشمس، ثم أكويها وأعطرها وأصفها أو أعلّقها في الدولاب. الدولاب الذي سيفوح برائحة النساء المتزوِّجات والملابس التي تشبّع من البخور والعود والعطور.

هكذا كنت أراني بعد أن أتزوَّج، أصبح امرأة حريصة على بيتها وزوجها كما كانت أمي، على الرغم من الأفكار التي كانت تنتابني أحيانًا عندما أتحدّث مع صديقاتي وأنتقد فيها النساء اللاتي يستسلمن للرجال ويكرسن حيواتهن لهم وللأولاد. بقي في داخلي هذا الشعور واليقين بأنني لن أكون مختلفة عن أمي. فنحن في النهاية نكون نتيجة لما تزرعه أمهاتنا فينا وانعكاسًا لما تكون عليه أمهاتنا في مختلف جوانب حياتهن. كنت أراني جواهر صغيرة، أحاكيها في كل ما تفعل وأكرِّر الأشياء التي كنت أنتقدها عليها. الكرم مع الآخرين والصدقات الروشن والهدايا والاهتمام بالآخرين لحدِّ التدخُّل في شؤونهم الخاصة.

لم أكن لأصبح زوجة مختلفة عمّا كانت عليه أمي. وكنت سأحبُّ زوجي كما أحبَّت جواهر سالم. لكن هل سيحبُّني شاهين كما أحبُّه؟ وهل سيتلعثم كلّما كلَّمني مثلما يحدث حين يتكلَّم مع أمي؟ لم أتمكَّن من العودة إلى النوم، وانتظرت مجيء أمي، واللقطة التي تقوم فيها بتبديل ملابسي، ورشّ العطر على ثيابي وغطاء سريري. انتظرت أيضًا مجيء شاهين والشعور بالألفة والأمان حين يكون قريبًا، على الرغم من المشاعر المتضاربة والتي صارت تقلقني بسبب الأشياء التي صار يعرفها عن أمي ونبرة الارتياح التي باتت هي تكلِّمه بها، كأنهما يعرفان بعضهما منذ وقت طويل، كأنه ليس مثل باقي الرجال الذين تتعامل معهم بحذر وتوجُّس عندما تلمس منهم اقترابًا بدافع الفضول أو المصلحة. لا أعرف ما الذي يحدث مع أمي ولا الذي صار يربطها بشاهين. مع هذا أريدهما هنا وأريد قربهما والأمان الذي يشعرني به وجودهما.

شاهين

لقد تأخَّرت آسف. كنت مشغولًا بالحديث عن مشاعري وقتل الناس.

- جينيفر إستيب

بالأمس لم أتمكَّن من النوم جيدًا، هجمت على رأسي كلمات وصور وأفكار غريبة، شيء ما كان يدفعني لترك السرير. كأن صوتًا ما كان يدعوني للقيام بعمل شيء ما. لا لم يكن صوت الشمطاء. وحتى وإن كان صوتها فلقد بتُّ قادرًا على إخراسها بسهولة. كان شيئًا جديدًا لم تتَّضح لي ماهيته، يشبه ذلك الصوت الذي يقولون إنه يوقظ المتقين ويدعوهم لقيام الليل. لكنني لم أشعر برغبة تأدية الصلاة. وأين أنا والصلاة؟ بقيت أحدِّق في السقف. لم أردِّد دعاء واحدًا ولم أصلِّ في قلبي، كان يمكن أن أدعو بأن تصير جواهر لي. أن تفهم الحبّ الذي أحمله لها والاهتمام الذي صار يقودني بلا وعي مني إلى الغرفة 106، لكنها لا تبدو لي مهتمة ولاواعية لكل ما يحدث معي. نظرت إلى الساعة فوجدتها تشير إلى الثالثة صباحًا. هل تراها مستيقظة؟ تجلس على سجادتها وتدعو لابنتها وزوجها الذي ما زالت غير مصدّقة أنه مات.

- شاهينوه، مَن صدقك مسوي عمرك أنك ما تذكر؟ تذكر حادث جبل حفيت. والسيارة التي اصطدمت بالحاجز.

أشعلت عود سجائر وأنا أسترجع تفاصيل الحادثة. وفاة مواطن في حادث سيارة هوت من جبل حفيت. هذا ما نشروه في الصحف من دون تفاصيل. لكن عالية عرفت من جاراتها أن القصة الحقيقية بها تفاصيل مثيرة، وعلى كل الأحوال الشائعات كانت ستخرج وتنتشر بروايات وقصص مختلفة يتفنَّن النساء والرجال في سردها. القصة التي أخبرتني بها عالية هي أن

المواطن كان لديه عامل عربي يثق به في كثير من أموره المالية، طمع العامل في الرجل ووضع خطة بالتعاون مع زوجته التي تعمل في إحدى الشركات التي يملكها المواطن لتقوم بإغوائه، فيستوليان على ماله ثم يهربان. المشكلة أن الزوجة وقعت في غرام الرجل الثري، والذي أُشيع بأنه وقع في غرامها، ووعدها بأن يتزوَّج بها إن تطلَّقت من زوجها. حين اعترفت لزوجها بالأمر، هدَّدها بأنه سيقتلها، وقام بأخذها إلى الجبل واتصل بالمواطن. واجهه هناك بالحقيقة، لم ينكر المواطن، طلب منه أن يطلِّقها، وسيدفع له المال، الكثير من المال. جنَّ جنون العامل. أخرج مسدسه، لكن المواطن تمكَّن بطريقة ما من ضربه والهروب مع المرأة، قاد السيارة بسرعة على الطريق الجبلي، واصطدم بالحاجز وسقطا معًا. تذكَّرت الحادثة، وتذكَّرت اسم الرجل فقد ذكره مانع أمامي، له نخل قريب من نخل مانع وأخيه الكبير. هذا نخل قوم سالم بن عبد الله الله يرحمه. وأشار إلى السور الممتد مسافة طويلة. فكّرت وقتها كيف أن كل المزارع كبيرة إلى مزرعة مانع. ريما سالم بن عبد الله، ابنة جواهر النائمة في الغرفة 106. كم هي الدنيا صغيرة.

حكت عمَّتي القصة بعد أن أخبرها مانع زوجها عن رغبة أبناء سالم في ضمِّ نخله إلى نخلهم. يا لوقاحتهم، والدهم مات بفضيحة عافانا الله ويأتون الآن ليطلبوا نخلنا؟ ما علاقة هذا الأمر بذلك فكّرت، لكن عمَّتي دومًا تخلط الأمور ببعضها، وتفضح الناس حتى وإن كانوا ميتين. المهم أنني تذكَّرت القصة، وأشفقت على جواهري. هل تراها تعرف؟ وإن كانت تعرف كيف تقدر على مسامحته وتمجيده والعيش على ذكراه حتى الآن؟ بكل بساطة لأنها جواهر، ولأن جواهر ليست مثل باقي النساء، حبّها مختلف ووفاؤها مختلف. وذلك الخائن لا يستحق كل هذا الحب. وهل تستحقه أنت يا شاهين؟ نعم أستحقه يا شمطاء وأستحق جواهر حبيبتي.

ارتفع صوت الأذان وأغمضت عيني، استغرقت في النوم وحلمت بأننا كنا على السطح أنا وهي، ندخِّن السجائر ونحدِّق في الشمس التي كانت ساطعة. كانت يدي مليئة بالدم وكان وجه جواهر كأنه وجه ريما، ثم جاء سالم بن عبد الله، وغرس بيني وبين جواهر نخلة طويلة بلا ثمر. خطفت جواهر منه

وصعدت بها النخلة، كان يصرخ بي ويتوسّلني أن أنزلها. لم ألتفت إليه، هي كانت صامتة كأنها ابنتها في غيبوبتها. لم تقل شيئًا ولم أقل شيئًا، حين وصلنا إلى القمة أفلتها وهوت إلى الأسفل، فنهضت فزعًا من الحلم.

ريما

لا يوجد شرٌّ أعظم من القتل. لا يهمني ما إذا كانوا يسمّونها حربًا أم عدالة. الحياة ثمينة.

- برايان جاك

عند العاشرة دخلت أمي، دنت مني وطبعت قبلة على رأسي، رائحتها الدافئة غمرت قلبي، وددت لو أمدُّ يديّ وأمسك بها، لتبقى قربي وقتًا أطول، أن أملأ أنفي من رائحة عباءتها. لكنها ابتعدت وجلست على الكرسي المعتاد. وأخرجت دلّتها وفنجانها. فاحت رائحة القهوة، أنهت الفنجان ثم ملأته من جديد، سمعت خرزات مسبحتها وهي تتصادم بخفة. تذكَّرتها وهي تلاطفني وتطلب مني أن أسكب لها القهوة مردِّدة قصيدة الشيخ زايد.

يا محتوي حسنات لخصال أطباع وســـلوك لطـــيفة

قم ســـــولي م البن فنـــــيال وضيف الذي تبغي تضيفه

يا نور عـــيني مالك أمثال ولا لي أنا دونك نكيفه

روياك تـفرّج ضيقة البال وبســـمة ثناياك الخـفيفة

صرت بعدها كلّما طلبت مني فنجان قهوة أقول إنني لن أفعل قبل أن تردِّد عليَّ الأبيات.

- تعرفين لولا القهوة كنت سأكون شخصًا آخر.

ضحكت وسألتها:

- كيف يعني؟

قالت ضاحكة:

- كنت سأجعل حياتك جحيم، أنت وهؤلاء الخادمات.

- أنت يا أمي؟ لا أصدق. ما رأيك أن نجرِّب؟ باجر ماشي قهوة.

- ستندمين ريموه، ما تشوفين شو يستوي فيني في رمضان؟ الحمد لله أن الشياطين مصفّدة ولا كنت لعبت بكم لعبة.

ضحكنا طويلًا. وضمَّتني وقبلت رأسي. لا يمكن أن أتخيّل أمي حادة الطبع سيئة المزاج. هي أطيب إنسان على وجه الأرض. وأنا ليتني أكون بنصف طيبتها. من أين أتيت بهذه الأطباع وهذه الأفكار الأنانية؟ مؤكد هي في عائلتنا وفي الغالب أخذتها من ناحية والدي، رحم الله أبي.

نهضت من مكانها، وسمعت خشخشة ثوبها وخطواتها الخفيفة تتّجه نحو الباب. فتحت الباب ثم شهقت، تخيلتها تضع يدها على صدرها. قالت: أخفتني شاهين. ثم دعته للدخول. سمعت خطواتهما التي تلت انغلاق الباب. سحبت هي أو هو كرسيًّا ليجلس عليه. لم يقترب مني، لم تصلني رائحته، ولم أسمع أيًّا من أغنياته. لكن لماذا جاء إلى الغرفة؟ ولماذا فتحت أمي الباب في اللحظة التي جاء فيها؟ صبَّت له فنجان قهوة. ووضعته على الطاولة. اشرب قهوتك. لم يقل شاهين كلمة واحدة. وهيئ لي أنني سمعته، وهو يرشف القهوة بارتباك.

- شحالك؟ وشو الشغل وياك؟

- بخير كل شيء تمام.

- أزيدك؟

- دعيني أسكب لنفسي، وأسكب لك القهوة.

- لا حشا، الريال ما يصب على الحرمة الغريبة.

لم يقل شاهين شيئًا. مدَّ لها الفنجان، وصبَّت له المزيد.

- كُلْ من هذا الرطب، هذا خضيري زارعنه حياة أبويه في النخل.

- رحمه الله.

عمَّ السكون برهة في الغرفة. لم تقل أمي شيئًا، ولم تسكب لشاهين المزيد من القهوة. وهو بقي مكانه جالسًا. بدا الجو غريبًا، ولم أفهم الوضع الغريب وما يدور هناك بين أمي وبين شاهين.

- هل أنت بخير؟ سألها شاهين أخيرًا.

لم أسمع ردَّها. لكنني سمعت صوتها، وهي تشفط إفرازات أنفها. لماذا تبكي أمي الآن وأمام شاهين.

- هل تريدين الخروج إلى مكان ما؟

لم تقل شيئًا أيضًا. كانت دقات قلبي تتسارع، وشعرت بالتوتر يحيط بي. إلى أين سيخرج بها؟

- آسفة.

- على ماذا؟

- على هذا.

- أرجوك لا تتأسفي.

تسارعت دقات قلبي، منذ متى وشاهين وأمي قريبان كل هذا القرب؟

- تلك الليلة شاهين، عندما أخبرتك عن زوجي. لم أخبرك كيف مات.

قاطعها شاهين بصوت واثق:

- أعرف، لا داعي لأن تقولي شيئًا.

- كيف تعرف؟

- أعرف، لقد سمعت عن حادثة سقوط السيارة في جبل حفيت.

- لكنك لا تعرف التفاصيل.

- بلى أعرف. كل الناس يعرفون القصة.

قصة ماذا التي يعرفها كل الناس. أمي ما الذي يحدث؟ صمتت أمي برهة كأنها تنبَّهت إلى أنه يمكنني سماع ما يدور بينهما.

- أرجوك فلنذهب إلى مكان آخر إن أمكن، لا أريد الحديث هنا.

نهض الاثنان وتركاني وحيدة في الغرفة. أمي ذهبت مع شاهين وتركتني مع أفكاري التي تلاطمت في عقلي.

شاهين

وحين أموت، اعلمي أنك ستكونين قاتلتي، لا أنا سأعيش من دون عينيك، ولا أنت ستعيشين من دون أنفاسي.

- غير معروف

مضى شهر على ذلك الحلم، لم أكن قادرًا على رؤية عينيها بعد أن تذكَّرت قصة موت زوجها الخائن. شعرت بأنني سأخونها أنا الآخر إن صمتت ولم أخبرها عن الحقيقة التي قد تكون لا تعرفها أو تنكرها. لم تتعطل أجهزة الغرفة 106 خلال ورديات، وهي لم تكلّف نفسها بالاتصال بي أو السؤال عني. ولماذا ستفعل تراها؟ لست سوى موظف في المستشفى الذي ترقد فيه ابنتها. لم أعد قادرًا على احتمال شوقي أكثر. قرَّرت أن أذهب لأراها بعد العاشرة صباحًا، انتظرت بعض الوقت حتى تلتقط أنفاسها وتقضي بعض الوقت مع ابنتها. وقفت عند الباب متردِّدًا، لكنه فتح فجأة واحمر وجهها لما رأتني، شعرت بقلبي يسقط في جوفي. دعتني للدخول وسكبت لي القهوة، بدت مرتبكة وحزينة، لم يسبق أن رأيتها بهذه التعاسة. رغبت في أن أمسك بيدها، وأخطفها إلى مكان بعيد، لكن ليس إلى قمة النخلة التي غرسها زوجها في حلمي. هي التي طلبت أن نخرج إلى مكان آخر، ولم يخطر ببالي سوى السطح مكانًا آخذها إليه. تقدَّمتها إلى الباب، وتبعتني هي بعد أن مسحت وجهها من الدموع بشيلتها.

كان الممرُّ خاليًا، خطوات قليلة مشيناها إلى مخرج الطوارئ والمنفذ نحو السطح. تبعتني بتردُّد، لم تتخيَّل أنني سأختار السطح، ربما اعتقدت أنني سآخذها إلى غرفة اجتماعات مغلقة أو إلى مكتبي.

- إلى أين نذهب؟

- إلى السطح لا تخافي.

صعدنا سلالم الطابقين الثاني والثالث. كانت تلهث وهي تحاول جاهدة فتح عينيها مع أشعة الشمس الساطعة. قدتها إلى البقعة المظلّلة التي أقف فيها للتدخين، حيث تحجب البناية المجاورة أشعة الشمس عنها. تذكَّرت الحلم، كأنه يتكرَّر أمامي مع بعض الاختلافات، بدت متوترة بعد أن انتظم تنفُّسها، لكن دموعها ظلَّت تنهمر بلا توقُّف. توترت أنا حين تخيّلت أن يتبعنا زوجها بعد أن يخرج من قبره إلى السطح ويزرع تلك النخلة. فأهرب منه بجواهر إلى قمتها. أخرجت من جيبي محرمة ورقية وناولتها إياها، اختنقت بـ شكرًا وعلا نحيبها.

وقفت بلا حيلة، لا أجرؤ على ضمِّها إليَّ، ولا أقدر على إكمال الحديث عن الموضوع الذي فتحته في الغرفة، لأن كل فعل أقوم به يجعلها تبكي أكثر. فكَّرت في أن أتركها حتى تهدأ، ليتني وضعت لها كرسيًّا تجلس عليه، لا يمكنني تركها الآن لأحضر لها كرسيًّا. كانت تشيح بوجهها عني، وهي تمسح دموعها بالمنديل الذي امتلأ فصارت تستخدم شيلتها وكُمَّ عباءتها. مضت خمس دقائق، وهي لا تزال تبكي. التفتت نحوي أخيرًا. كان أنفها محمرًّا وجفونها منتفخة، لكنها ابتسمت لي، ورمقتني بتلك النظرة المعقَّدة، نظرة الامتنان والأسى والتعب.

- كيف تقول إن الجميع يعرفون القصة يا شاهين؟

تردَّدت قليلًا ثم شعرت بأنه من واجبي أن أكون صريحًا معها، لعلّ صراحتي تجعلها تتحرَّر من العبء الذي يثقل عليها.

- يعرف الجميع أن زوجك لم يكن وحده حين مات، وأن زوجة العامل الذي خطَّط لاختلاس الأموال كانت معه.

وضعت يدًا على فمها والأخرى على قلبها. في صدمتها بدت كأنها لم تكن تستمع إليَّ، وأنا أخبرها عمّا أعرف، عن القصة التي تذكَّرتها والتي حكتها لي

عمَّتي عالية. قلت بقسوة لا أعرف كيف تمكَّنت من إبدائها لها: كل المدينة تعرف. الجرائد لم تكتب القصة كما حدثت فعلًا، لكن كل المدينة تعرف. وحدها هي كانت تظنُّ أن القصة التي تسرَّبت إليها عن طريق إحدى زوجات أبناء سالم، سرٌّ لا يعرف عنه إلّا أبناؤه. جلست على الأرض، وضمَّت ركبتيها وحضنتهما. اتَّسخت عباءتها بالغبار، انهمرت دموعها، ولم أعد قادرًا على احتمال بؤسها، فاقتربت منها.

- لماذا تبكين الآن يا جواهر؟ لقد مات هو، منذ سنوات طويلة، لماذا تقيمين مأتمًا كلّما تذكَّرته؟

نظرت نحوي بمرارة.

- لأنه يعيش في قلبي، في قلبي أنا، حتى وإن أحبَّ امرأة أخرى، أنا أحبه، وهو كان يحبني. العامل كاذب، هو وزوجته كاذبان، لقد كانت معه في السيارة، لأن زوجها كان سيقتلها. سالم لا يخونني. لم يخنِّي.

غلى الدم في عروقي، نظرت إليها بحدَّة وقلت:

- جواهر، سالم مات، وذهب إلى الجحيم.

نظرت إليَّ معاتبة، وقالت مخفضة رأسها وهي:

- لا تقل هذا الكلام أرجوك.

قلت مشفقًا عليها:

- أنا هنا، حيّ أمامك، أنا أحبّك، أحببتك أكثر من سالم، ولن أخونك يومًا، أموت ولا أخونك يا جواهر.

توقَّفت فجأة عن البكاء، كأن عقلها عاد إليها، نظرت حولها، واستوعبت أنها معي على السطح، تحاول إقناعي بأن سالم لم يخنها. تذكَّرت ريما الراقدة على سريرها في غيبوبتها. نهضت متثاقلة بصدمتها، وتلفَّتت تبحث عن المنفذ.

- جواهر إلى أين تذهبين؟

جذبتها من يدها فسحبتها مني. عدت وأطبقت على ذراعها. اسمعيني، أنا أحبّك، أمسكت بيدها أقبّلها، سحبتها كالملسوعة ورمقتني باحتقار. تعالت دقَّات قلبي وشعرت بالتعاسة تتملَّكني. التعاسة التي تحوَّلت إلى غضب يستعر في صدري، لا يمكن، لا يمكن أن تحتقرني حبيبتي.

- اتركني شاهين أرجوك، أريد العودة إلى ريما.

"لا تتركها تفلت منك، إنها لك الآن، شاهينوه إنها لك. تستطيع أن تحصل عليها، فرصتك الوحيدة هي الآن".

- جواهر، أنا أحبُّك، أريدك، انظري إليَّ، لا تشيحي بوجهك عني. جواهر أرجوك.

أمسكت بيدها من جديد، وسحبتها منّي وصرخت.

- دعني أذهب.

"ستهرب منك يا غبي، خذها الآن، أو ستضيع منك إلى الأبد".

- أرجوك يا جواهر، امنحيني فرصة، سأنسيك سالم، سنعيش حياة سعيدة أعدك.

هزَّت رأسها وقالت:

- ماذا تقول يا شاهين أنت تهذي، اتركني أعود إلى ابنتي.

- لن تذهبي إلى مكان، جواهر أنا أحببتك، أحببتك كما لم أحبّ أحدًا، منذ أن دخلت إلى حياتي صرت إنسانًا آخر، لقد صرت أحبّ حياتي للمرة الأولى، ولم أعد أشعر بالتعاسة التي كنت أشعر بها، أنت المصباح الذي أضاء عتمة عمري يا جواهر.

رمقتني بغضب واشمئزاز واستدارت لتتركني. جذبتها نحوي وضممتها بقوة، وهي تحاول الهرب من بين ذراعي. ضربتني بضعف، وهي تبكي. أربع خطوات كانت تفصلني عن حاجز السطح.

- تعرف؟ الحق عليّ أنا، لأنني سمحت لنفسي بأن أتكلم معك بشؤوني الخاصة، اتركني أذهب.

"إن تركتها الآن لن تراها مرة أخرى".

- لا يمكن أن أتركك، أموت ولا أتركك.

صرنا قريبين من الحاجز، ملتصقين به، نظرت إلى الأسفل وشعرت بأن الموعد قد حان. إما أن أعيش معك يا جواهر وإما أن نموت معًا. نظرت إلى عينيها اللتين أذبلهما الدمع والتعب والخوف. كان صوت الشمطاء يعلو، وعرفت أنني سأفعلها اليوم، لا رجعة في هذا الأمر. إن تركتها الآن سأخسرها إلى الأبد. لن تحدّثني من جديد، قد تتقدَّم بشكوى وأفقد عملي وقد تتجاهل الأمر، لكنها لن تسمح لي بالدخول إلى غرفة ابنتها. ستخرجني من حياتها، وأنا لا حياة لي من دونها.

إذن، فقد حان الوقت. تتابعت في رأسي سلسلة من الصور، الصبي في المدرسة، حميد الأعور، دكتور نصار، أم جميل، عمَّتي عالية وزوجها مانع. عصرتها بين ذراعي، لم تَعُد لديها القدرة على المقاومة أو الصراخ. كان خدها مبلّلًا بالدمع، مسحته برقة وهمست في أذنها: أحبُّكِ، وهويت بها، إلى الأسفل. لم أفلت يدها كما فعلت في الحلم، ولم أتركها لذكرى سالم أو لقلقها على ابنتها، التي لا أمل لصحوتها من الغيبوبة. سقطنا بالقرب من بعضنا. كانت قريبة وكانت عيناها مفتوحتين، رأسها مائل نحوي والدم يسيل من فمها، وأنا كما تمنَّيت، كان وجهها آخر ما أنظر إليه قبل أن أموت. ماتت جواهري، سال دمها وامتزج بدمي. ودَّعت وجهها الجميل، حتى وهي ميتة كان وجهها جميلًا. سعلت، اختنقت بدمي، وللمرة الأولى شعرت بأنني متخفِّف من كل الأحمال. لم أكن نادمًا على شيء. لكنني تمنَّيت أمنية أخيرة لم تكن لتتحقَّق، وهي أن أُبعث في صورة شاهين آخر، وحينها ربما، ستحبُّني جواهر.

ريما

لا تنطقي باسمي عندما تعلمين بموتي، حيث إنه سيعبر من بين التراب الداكن من خلال صوتك.

- روك دالتون

لم تَعُد أمي، مرَّ وقت طويل، أستطيع معرفة الوقت من حساب مرات الطنين الطبيعية للأجهزة المحيطة بي، لم تتركني مرة كل هذا الوقت، لا يطول خروجها من الغرفة أكثر من ربع ساعة. أشعر بأن شيئًا سيئًا قد حدث، قلبي يخفق بسرعة، وأشعر بالعرق يتصبَّب مني. إلى أين أخذها شاهين؟ رائحة القهوة تفوح في الغرفة، إنها تصيبني بالغثيان. الطبيب أيضًا جاء، وأمي لم تكن موجودة. لم تفوِّت مرَّة زيارة الطبيب، تسأله عن حالتي، ويقول لها: لا جديد. الوضع مستقرٌّ لكن لا جديد. تتمتم هي بـ يا رب، وتختنق بدموعها. دخلت الممرِّضة مرتين، يعني أنه مرَّت ثلاث ساعات، هي تأتي كل ساعة ونصف. مع هذا لا أشعر بأنها ثلاث ساعات. عادت الممرِّضة من جديد، برفقتها ممرِّضة أخرى. تتحدثان الفلبينية. لا أستطيع فهم شيء، أسمع اسم شاهين.

- آي ريماااا poor girl.

تتهامسان وتتركان الغرفة. أعرف أنني مسكينة، أسمع هذه الكلمة منذ جئت إلى المستشفى. لكن لماذا تقولها بأسى بالغ الآن؟ تتعالى دقات قلبي. حدث شيء لأمي. لا بدَّ من أن شيئًا حدث لها.

للمرَّة الأولى أشعر بالندم على فعلتي الحمقاء وعجزي لأنني راقدة هنا، لأنني عاجزة عن النهوض والاتصال بها والبحث عنها. هاتفها هنا على كل حال، رنَّ طويلًا، نسيته ولم تأخذه معها، كما نسيتني وذهبت مع شاهين.

الأجهزة تحدث طنينًا عاليًا، كلها تطنُّ معًا وتملأ الغرفة. لكن لا أحد يأتي، فلا أمي تهرع إليَّ، وتقف على رأسي منتظرة أن يأتي الفنِّي ليسكتها، ولا الممرِّضات يتراكضن، ويتصلن بشاهين ليصلحها، ولا شاهين يجيء ليداعب أوتار الأجهزة بأصابعه، ويسمعني أغنيات الحبّ التي تنساب رقيقة من سماعة أذنه.

النهاية